خالد الحديدى

إمرأة من الجنوب

رواية

طبعة أولى إبريل 2019

بطاقة الكتاب

مسابقة شاعر / أديب النيل والفرات

الدورة الرابعة – إبريل 2019

الكتاب الفائز بالمركز الثالث م

فرع الـــروايـــــة

عنوان المؤلف	إمرأة من الجنوب
المؤلف	خالد الحديدى
التصنيف	رواية
رقم الإيداع القانونى	2019 - 8206
رقم الإصدار الداخلى	390 الطبعة الأولى إبريل 2019
عدد الصفحات	100 صفحة

مؤسسة النيل والفرات للطبع والنشر والتوزيع

ثورة مصرية تشرق إبداعاً على الوطن العربي

رئيس مجلس الإدارة

ناجى عبد المنعم

مؤسسة النيل والفرات للطبع والنشر والتوزيع أسسها الشاعر ناجى عبد المنعم عام 2017

رخصة مزاولة مهنة:58365 – سجل تجاري: – 13242 / 2017 – بطاقة ضريبية: 35—01—572

عضو عامل باتحاد الناشرين المصريين رقم 941 لسنة 2018

هاتف:01011256943 – 01116202218 – 01202541192 تليفاكس:020554372901

nagyegy200064@gmail.com النيل والفرات

alnilwaalfourat@gmail.com alnilwaalfourat

المقر الرئيسي:ج.م.ع محافظة الشرقية – العاشر من رمضان – مجاورة 13 – امام سنتر الـ13 – عقار 304

الفصل الأول

قرية البياضية إحدى قرى جنوب مصر الصغيرة. كأي قرية من قرى دول العالم الثالث، الحياة فيها تنحدر من سيئ إلى أسوا ...مع خيوط الفجر الأولى يتعالى صياح الديوك بين أكواخ القرية المتناثرة، التي تختبئ تحت غابة من أشجار النخيل والدوم. وهي من أشهر نباتات المناطق شبه الصحراوية. منازل القرية مبنية بالطين ما عدا منشآت الحكومة وبيوت التجار، مبنية بالطوب المحروق ومطلية بالجير الأبيض جعلها ذلك تشكل نغمة نشاذ في هذه المنظومة التي حاكها الفقر. الحاج إبراهيم تاجر كبير من أكبر رجال القرية. يقف منزله شامخ في قلب القرية. كانت الانتهازية تحتل مساحة واسعة من شخصية هذا الرجل ويجسد ما يسمى برجل الدين ورجل الدنيا، يؤم المصلين يوم الجمعة في مسجد القرية ويقوم بتخزين الدقيق والسكر في متجره بالإضافة إلى أنه عضو بارز في مجلس المدينة ويعتبر رجل الحكومة في القرية متزوج من امرأتين، ابنة الحاج سويلم وهي عقيم لا تلد والثانية، شقيقة عبد القادر التاجر، أنجب منها ولديه كمال وإيمان. كان للثروة التي هبطت على الشيخ عبد القادر أسطورة، ظلت تحكيها زوجته الطيبة آمينه للغادي والرائح، في ذلك اليوم ذو الحر القائظ، من أيام رمضان، حضر زوجها من مزرعته المتواضعة وهو يصطحب رجل غامض يرفل في ملابس بالية ويحمل حبلا ملفوفا حول عنقه بعناية، كانت قمة الأصالة تتجسد في رمضان عندما تدعو عابر سبيل ليتناول معك طعام الإفطار. تناول الرجل الغامض الطعام معهم ودعا لهم بالبركة وبات ليلته معهم وفي الصباح أعطى عبد القادر الحبل وأخبره أنه سيعود ليأخذه يوما ما وأندفع في طرقات القرية واختفى كأنما ابتلعته الأرض. مضت السنين

وانفتحت كنوز الثروة على الحاج عبد القادر المزارع الفقير وبدأ يخطو خطوات واسعة نحو الثراء. نجح محصول البصل الذي زرعه في ذلك الموسم واشترى شاحنة ثم أسطول شاحنات ينقل البضائع من القاهرة إلى المدن الاخرى للبلاد،

لم يتسلل الغرور إلى نفس الحاج عبد الباسط رغم الثراء المفاجئ الذي هبط عليه، بل كان سباقا للخير، بنا المدرسة والعيادة بحر ماله، وفي كل المناسبات السعيدة التي تمر على القرية كانت له اليد الطولى، ظل لسانه دائما يردد الشكر والعرفان لله الذي يرزق من يشاء بغير حساب، ومنذ ذلك الحين تمنى أهل البلدة لو كان ذلك الرجل الغامض صاحب الحبل ضيفهم، انه عبد صالح، تمنوا لو كانوا صادفوه فهو يأتي مرة واحدة جالبا معه السعادة والثراء وسعيد الحظ الذي يعرفه، لأنه يأتي دائما في ملابس الفقراء والمتسولين ومظهره الخارجي لا يدعو إلى الاحترام في هذا الزمن الذي يهتم الناس بالمظهر دون الجوهر. كان هذا حديث حاجة آمنة الطيبة زوجة عبد القادر. ومن متجر الحاج إبراهيم يلوح سور المدرسة ذات الطلاء الأبيض، المدرسة الابتدائية الوحيدة في البلدة، ملحق بها منزل حكومي واحد للناظر، كان في تلك الفترة الرجل الأسطورة زين وزوجته زينب وطفلهما خالد، منذ أن حضرت هذه الأسرة الصغيرة إلى القرية كانت محل احترام وتقدير الأهالي. وزين رجل ثائر لا يرضيه الحال المائل، عرف عنه المشاركة في ثورات عديدة. وعند نهاية الطريق الذي يفصل بين المدرسة ومنزل بشير الجزار، كان يقيم عدلي، الذي كان يعمل كاتبا في محكمة البلدة وكعادة الفقراء وذوي الدخل المحدود، كانت أسرة عدلي كبيرة توفي نصفهم بالأمراض المستوطنة، كانت زوجته زهرة، المرأة العنيدة التي كانت من أجمل بنات القرية أيام شبابها، تصارع في طلب ودها شباب

القرية غنيهم وفقيرهم ولكنها اختارت عدلي رغم بساطته ولا مبالاته التي اشتهر بها في شبابه، أنجبا، شيماء الكبرى ثم سامي، أشرف، رباب، ومسك الختام مازن الرضيع. وعند طرف المقابر تقع قبة الشيخ صالح، جوار شجرة الدوم العتيقة. وأما المزارع فقد كانت تحتل الشريط الضيق بين منازل البلدة ونهر النيل.

في ذلك الصباح جلست زهرة تعد نفسها للذهاب إلى الحقل، يرقد زوجها الكسول في فراشه عند طرف الفناء وقد ارتفع غطائه وتحته زجاجة الخمر التي لا تفارقه ابدا وكوب ملقى بجواره، جلست شيماء قرب الموقد تعد الشاي. سامي ما زال نائما سابحا في أحلامه الوردية. فهو لا يحب العمل في الزراعة، أما أشرف ورباب فقد استيقظا مبكرين وجلسا قرب الموقد في انتظار الشاي كانت رباب تحمل شقيقها الصغير مازن والدجاج يجري هنا وهناك وقد تعالى نهيق الحمار

في الخارج، التفتت زهرة إلى ابنتها رباب وقالت:
- اذهبي وجهزي الحمار.
نهضت رباب وسلمت مازن لأمه وانصرفت تضرب الأرض بأقدامها الصغيرة، بدأ البخار يتصاعد من فوهه إناء الشاي وهو فوق النار. انزلت شيماء الإناء وبدأت تصب الشاي في الأكواب، نهض أشرف وناول أمه كوب الشاي، كانت زهرة تحملق في وجه سامي النائم بالقرب من والده " ومن شابه أباه فما ظلم"، عادت رباب بعد أن أعدت الحمار وجلست ترشف الشاي في صمت وتلذذ، وضعت زهرة مازن النائم جانبا، نهضت وهي تنادي قائلة:

- شيماء!
- نعم يا أماه

- اهتمي بشقيقك النائم هذا وعندما يستيقظ سامي دعيه يحضر لي في الحقل ولا تنسي أن تعدي الافطار والشاي لوالدك حتى لا يستيقظ ويحيل حياتك إلى جحيم.

كانت هذه آخر كلمات زهرة

قبل أن تخرج وتمتطي حمارها، تشق طرقات القرية المتربة وهي تتبادل تحية الصباح مع المارة من أهل البلدة الطيبين اللذين كانوا يتدافعون في الطرقات كعادتهم كلما تنفس صباح جديد.خرج أشرف خلف أمه مباشرة في طريقه إلى صديقه خالد، هناك سمع العراك اليومي والمعتاد بين خالد وأمه زينب ذلك الجدال الذي كان أشرف يعرف أسبابه سلفا، زينب تريد من ابنها ان يصلي في المسجد وابنها يرفض ذلك، خالد منذ وفاة والده زين، ترك في نفسه ظلالا من الحزن

من الصعب محوها، جعل منه هذا الحدث الجلل طفلا منعزلا كثيرا، وكان أشرف يراه يجلس وحيدا عند النهر، يحملق في الفراغ أمامه. ظل أشرف يردد أنه سيتنازل عن نصف عمره، لو عرف ماذا يدور في ذهن صديقه، كان صديقه يقول كلاما غريبا تقشعر له الأبدان، لا يحتمله أشرف ولا والدته زينب، كان يقرأ في كتب والده الراحل لذلك كان حديثه الدائم يدور حول أسرار الحياة والموت. ما زال أشرف يذكر عندما وبخ صديقه وطلب منه الإذعان لرغبة أمه والذهاب لصلاة الفجر في المسجد.

صاح فيه خالد محتدا:

- أنا لن أذهب لأصلي مع هذا المترهل الحاج إبراهيم، لأني لا أريد الاستماع إلى خطبته التي عفا عليها الزمن. وإذا كان لا بد من

الصلاة أنا أصلي هنا. ياأخي نحن نبحث عن علاقة روحية بين الخلق والخالق تكون مبنية على المحبة والتقديس وليست مبنية على الخوف والطمع، كما يفعل هؤلاء الغوغاء اللذين تعج بهم قريتنا وعلى رأسهم الحاج إبراهيم هذا كان الانفعال والغضب يعصفان بخالد والكلام يتدافع من فمه كالرصاص. حتى اشرف نفسه كان يتملكه الخوف ويبذل الساعات الطوال في تهدئة ثائرة صديقه ويحاول استرضاء زينب بشتى الوسائل. إن غضب زينب كان حنان وحب لابنها وخوفها عليه من غضب الله. كان غضب خالد مليئا بالكراهية للحاج إبراهيم الذي يتلاعب في أقوات أهل القرية ومتاجرته بالدين من أجل مصلحته الشخصية. ظلت العلاقة التي تجمع الصديقين متينة لا تعكرها شائبة وكانت هناك صداقة تجمع أشرف بكمال ابن الحاج إبراهيم، كان كمال على العكس من والده. ابن صالح واب ضال، ومع ذلك لم يكن هناك أي ود عميق أو انسجام بين كمال وخالد، ظل أشرف بطبيعته المرنة يحاول التوفيق بين الاثنين اخذت الصداقة تنمو بين هذا الثالوث المتناقضة متسقة وهم لا يعلمون ماذا ينتظرهم في رحم القدر. هدأت ثائرة زينب بدخول شريف البيت، كانت تحبه كثيرا، نظر خالد في إمتنان إلى صديقه الذي انقذه من غضب أمه وقد امتلأت عيناه بالدموع وزينب

ما فتئت تذكره بوصايا المرحوم والده. ما زال أشرف يذكر ذلك اليوم الذي ذاع فيه خبر وفاة زين. كان الحر قائظا آنذاك عندما تعالى صياح ابن (ستوته) ناعي القرية، الرجل المكلف ببث أخبار الوافيات، كان أهل القرية يتشاءمون منه عندما يرونه يجوس في الطرقات ممتطيا حماره الأسود. فهو رسول ملك الموت، . لم تهدأ أهل القرية من كابوسه إلا عندما غرق مع المركب الذي يقل القرويين غربا، غرق مع نفر غير قليل من أهل القرية في تلك الكارثة الجسيمة التي

دفنت فيها عشرون جثة في يوم واحد، وبموت هذا الرجل غرقا تنفس أهل البلدة الصعداء. لكن مع ذلك ظل كبار السن

في القرية يرددن الأساطير ويلكن بأفواههن الأساطير حول هذا الرجل. عندما يكتمل القمر ويصير بدرا في زمهرير الشتاء يخرج ابن (ستوته) من النهر ممتطيا حماره الذي غرق معه في الحادثة والماء يقطر منهما، ثم يتجولان في القرية ليلا وقرب انبلاج الفجر يعودان إلى مثواهما الأخير تحت الماء. كثيرا ما كانت هذه الأساطير تسبب الرعب لأطفال القرية ومن بينهم أشرف وكمال ماعدا خالد، الوحيد بين الأطفال الذي كان لا يؤمن بهذه الخرفات، بل كان يقضى جل وقته في ليالي الشتاء الباردة على شاطئ النهر يناجي روح والده، يحدق في الأفق البعيد الذي ذهب إليه زين يوما ولم يعد،

كان والده يتسلل إليه عبر ضوء القمر من مكانه السرمدي ويجلس جواره يحدثه عن ما يجب عليه التزامه حيال والدته والرضوخ لرغباتها. كان الابن يستمع إلى أبيه في صمت مشوب بالحزن وأكثر ما يحزنه الدماء الغزيرة التي تغطي جسد والده، وجهه الصلب وعيناه الشجاعتان تمسحان دموع الابن الكئيب. كان الابن يسأل والده عن سر الدماء التي تغطي جسده ويرد الأب في حنان بالغ " أنها طلقات الرصاص يا أبني، لقد كنت في مقدمة المتظاهرين".

- هل كان ذلك مؤلما يا أبي؟
- نعم، مؤلما جدا، شعرت بالحرارة تجتاح جسدي وبعدها أخذت أعلوا وارتفع في فضاء رحيب جميل.
- هل الثورة كانت كذبة يأبي؟
- نعم كانت كذبة كبيرة. استبدل الناس ما هو خير بما هو أدنى.

وينظر خالد إلى والده في دهشة.
- هل هذا يعني أن التضحيات ذهبت هباء؟
- لم تذهب هباء يا ابني. بل دلت على أن الشعب يملك إرادة التغيير. لا تصلح ثورة من غير برنامج. لذلك احتوتها كلاب السلطة. وأجهضت طموحات الجماهير.
- اني اقرأ ذلك في مذكراتك التي تركتها لي.
- هل أنت عاتب على رحيلي يا أبني
- نعم يا أبي، ولاكن اعتز بك كثيرا.

وعند الفجر يحضن الأب بجسده الفاني ابنه بقوة ويتسلل عائدا بنفس الطريقة، يعود الابن إلى البيت، ويحكي لامه ما دار من حديث بينه وبين والده، لم يكن ذلك يزعج زينب، بل كانت تنظر إلى ابنها في حنان، ثم تذهب إلى حجرتها وتبكي، على زوجها الشهيد وابنها الحزين.

وفي الصباح يخرج الصديقان كالمعتاد يحملان الطعام إلى زهرة في الحقل، كانا يشقان طرقات البلدة في صمت،

حافلين بالضجر. تبا لهذه العطلة المدرسية اللعينة. متى تفتح المدارس وتريحهم من هذا العذاب؟

الفصل الثاني

وفي الصباح البكر الندي الحنون كانت رائحة روث الماشية تعبق الجو والابخرة تتصاعد على سطح الأرض كان هذا يشعرها بمذاق الحياة، زهرة تعمل في حقلها بجد ونشاط. بدا أن هذا الموسم الزراعي ناجح، جادت فيه الأرض بكل سخاء وسيكون هذا العام عام خير لأهل البلدة كافة. جلست زهرة تلتقط أنفاسها عند النخلة الضخمة وعن كثب منها كان الحمار يعتلف من الحشائش المنتشرة على حافة الجدول الكبير الذي يمر بجميع حقول البلدة. ما زالت زهرة تذكر لعدة سنوات مضت عندما حضر وفد الحكومة ولأول مرة ترى رجال الحكومة الجديدة آنذاك كان يرتدون البدلات العسكرية الجميلة التي تزينها النياشين والأنواط. هؤلاء أعضاء "مجلس قيادة الثورة". كان الحماس يتدفق من أحاديثهم والإصرار يلمع في عيونهم. كرمهم أهل القرية بالذبائح والزغاريد عندما حضرت عربتهم العسكرية تشق طرقات القرية الضيقة المتربة. الرجل الوحيد الذي لم تعجبه تلك الزيارة كان الحاج إبراهيم، ما فتئ يلعنهم وينعتهم خفية بالكفار والملاحدة. وفي المجلس الكبير الذي ضم أعيان البلدة ورجال الحكومة تقرر أن تزود البلدة بوابورات لسحب المياه وشق ترعة رئيسية بديلا عن طريقة الري بالساقية القديمة ولم تصدق زهرة أن هذا الحلم تحقق آنذاك، ما أن أنصرف رجال الحكومة الجديدة الممتلئين بالحماس وسط زغاريد النساء وأهازيج الأطفال. بعد أيام قلائل حتى حضرت الشاحنات الكبيرة تحمل هذه المضخة الحديدية الضخمة التي يتدفق الماء منها كالشلال وأصبحت زهرة تنظر إلى أبعد ما تستطيع ولا تجد حدا فاصلا بين حقلها الممتد والسماء "بارك الله في هؤلاء الرجال أصحاب البدلات العسكرية التي

تزينها النياشين والأنواط تحدثوا قليلا وفعلوا كثيرا ". قطع ظهور الأولاد حبل أفكارها كانت أقدامهم الصغيرة تتعثر وهم يشقون الحقول تحت وطأت ما يحملونه من طعام إلى أمهم الحبيبة، ابتسمت زهرة عندما طاف في ذهنها المستقبل المشرق الذي ينتظر هؤلاء الصبية في ظل الثورة. ها هي القرية قد انتعشت وازدهرت في فترة وجيزة وأول الغيث قطرة. جلس الأطفال حول أمهم وبدأو في تجهيز أواني الإفطار. وارتفع نهيق الحمار معلنا بدأ الفطور والتفتت زهرة إلى الأولاد:

- هل استيقظ والدكم؟
قالت زهرة في استياء فهي تعرف ماذا يعني أن يستيقظ زوجها.
- نعم استيقظ وقال أنه ذاهب إلى السوق بعد إثارة ضجيجه المعهود وتعليماته التي لا تنتهي.
كان رد أشرف بمثابة إنذار لزهرة بأن زوجها يعتزم أمرا جللا، فزياراته للسوق طابعها دائما الإثارة، فقالت في حدة:
- ماذا يفعل في السوق؟
- لديه أجولة تمر يزمع بيعها وهي في مخازن الحاج إبراهيم.
- لعنة الأبالسة عليه! لا بد أنه يريد أن يبيعها للنسوة اللائي يصنعن الخمور البلدية بثمن بخس.
قالت ذلك وقد بلغ بها الاستياء مداه، ثم انتصبت وغسلت يديها من جدول الماء، جمعت رباب الأواني وجلست عند حافة الجدول تغسلها،

خالد الصامت دائما يجلس ساهما كعادته، وزعت رباب أكواب الشاي الساخن عليهم جمعيا، ثم لازم الجميع الصمت وهم يرشفون الشاي في تلذذ على الأرض الطيبة والحقول اليانعة الخضراء. كانت زهرة تعلم تماما أن الحديث عن سلبيات زوجها العنيد لا تنتهي، لكن مع ذلك تعلم في قرارة نفسها أنها تحبه ذلك الحب الذي يجعلها، في

حرمان متصل وانصراف عن كل ما في الحياة من لذة وإعراض عن كل ما في الحياة من متاع واكتفاء بما يقيم الأود ولا يدنى من الموت.

بدأت الشمس تصلي الأرض بشواظ من نار، التفتت زهرة إلى أولادها:

- انصرفوا الآن قبل اشتداد الهجير.
- حاضر يا أمي.
- أين سامي؟
- استيقظ كالمعتاد وحمل الناي وذهب إلى الطاحونة.
- ألم تخبروه بأني أريده هنا؟
- أخبرناه يا أمي.
- تبا لهذا الولد الخائب، انصرفوا الآن واخبروه يأتي إلى هنا بدل الجلوس ومعاكسة الفتيات في الطاحونة.

ودعت زهرة أولادها بنظرة حنان وعيون ملأى بالحب ثم حملت فأسها وانهمكت تعمل في جد ونشاط حتى استغرقها العمل تماما والذي جعلها لم ترى العربة الفارهة التي لاحت في الأفق خلف الحقول وهي تشق طريقها إلى القرية، عربة مراد عم أولادها الثري، القاضي الكبير المقيم في القاهرة. مراد الشقيق الأصغر لعدلي، نال درجات عليا من التعليم فوق الجامعي أهلته لهذا المنصب. توقفت العربة أمام بيت عدلي مثيرة عاصفة ترابية، الشيء الذي استفز كلاب بشير الجزار فأخذت تنبح نباحا شديدا معلنة حضور شخصا غريب إلى البلدة، نزل مراد من العربة يحمل حقائبه، تدافع أبناء عدلي نحو عمهم وتناولوا الحقائب المحملة بالهدايا إلى داخل البيت في مظاهرة عارمة. مراد بمثابة ليلة القدر يأتي دائما محملا بالهدايا وكل ما يبهج الأطفال، جلس مراد على المسطبة المتهالكة وجلست

شيماء عن كثب في المسطبة المقابلة تمشط شعرها وكان النزاع قائم بين أشرف ورباب على الهدايا المتناثرة فوق المسطبة، التوتر باديا على مراد. كان في عجلة من أمره رغم مسافة السفر الطويلة التي تفوق مئات الأميال:

- أين والدكم؟
- ذهب إلى السوق.
قبل أن تختم شيماء كلامها أنفتح باب الفناء الخارجي معلنا قدوم عدلي المخمور وفي يده زجاجة الخمر رفيق دربه.
لم يلحظ عدلي وجود شقيقه لأول وهلة وبدأ كالمعتاد يرسل شتائمه وسبابه.
- تعسا لكم. لمن العربة التي تقف في الخارج؟
- هذا عمي مراد يا أبي. حضر توا من القاهرة. قالها أشرف في ارتباك وتفادى والده الثمل.
وقف عدلي كالمصعوق يحملق في شقيقه وقد أخذته المفاجئة غير المتوقعة وتمتم من تحت لسانه المتلعثم.
- اهلا وسهلا. متى حضرت؟
- أهلا وسهلا... ما هذا الاستقبال السيئ يا أخي. متى تقلع عن هذا العادة.
- ماذا أفعل يا أخي. الحياة صعبة لا تطاق؟
نظر مراد في حنان عميق ممزوج بالشفقة إلى شقيقه فأفسح له مكان لكي يجلس بجواره مرددا:

- ألا تريد أن تنساها ابدا، رغم مرور كل هذه السنين الطوال؟

- آه، ما أتعسني!

انحدرت دمعة من عيني عدلي المحمرتين. وتداعت الذكريات الحافلة بالشجن. (مروة) رفيقه صباه التي طواها الموت في ريعان شبابها ودفنت في المدينة. تذكر ضفائرها الطويلة وجسدها النحيل وشقاوة الطفولة ولهوها البريء، والصعود على أشجار النخيل الطوال واقتسام التمر. مسح مراد الدموع من عين شقيقه وضمه إليه.

- إن لك زوجة وأطفال الآن، هم الاجدر بحبك ورعايتك.
كانت نصائح مراد تسبب آلاما شديدة لأخيه.
- أعدك بأن تكون هذه آخر زجاجة.
- أنها كوعودك السابقة!
سرح عدلي بخياله بعيدا، إن زيارة شقيقه أججت مشاعر اللوعة فأثارت لواعج الاشجان القديمة. عندما ماتت مروة،

أدمن عدلي شرب الخمر وترك الدراسة وأخذ يلازم قبرها السنين الطوال وفي مرة تعارك مع المرحوم والده عندما عرض عليه الزواج من امرأة أخرى وخرج غاضبا واستقل القطار الذي يعج بالمسافرين القادمين من القاهرة. وفي القطار التقى بالرجل الغامض الذي كان ينبعث الضوء من عينيه. كانت نظرات الرجل الطيبة تتغلغل في أعماق عدلي الجريحة وتضمدها كشعاع الليزر وكلامه المشبع باليقين " يا ابني لا تحزن، الحياة مثل هذا القطار الذي نركبه، يأتي الناس ويعمرون الأرض وينصرفوا في عتمة السديم الرمادي الذي يسمى الموت وتتحلل أجسادهم، وتفنى تحت الأرض، أما الأرواح فتصعد إلى عليين أو ترتد أسفل سافلين" ظلت هذه الكلمات ترن في أذنه سنين طوال. قطع حبل أفكاره أخيه متسائلا:

- إلى أين ذهب عقلك؟

القى عدلي الزجاجة جانبا وأخذ يحدق في شقيقه الذي يجله الثراء من أخمص قدميه حتى رأسه ولحيته التي خطها الشيب ووجهه المصقول كالمرآة.

- انى فقدت أشياء لا تعوض يا أخي! لا يعرف الليل الطويل وسهده إلا من احس بلوعة الفراق أنا.

واراد الاسترسال فقاطعوه مراد:

- دعك من هذا الحديث الذي لا طائل منه، تنبه عدلي فبدأ يعتدل على مقعده وبدا كأنه استيقظ من حلم طويل ونظر إلى أخيه كأنه يراه أول مرة وتحدث مغايرا مجرى الحديث.
- ما هي أخبار أمنا أمنة؟
- هي في المستشفى لإجراء بعض التحاليل الطبية وهي تبلغك السلام.
- الله يسلمها. هل هي بخير؟
- نعم بخير وأرسلتني لك في موضوع هام.
نظر عدلي إلى شقيقه في توجس. كلام الحاجه لا بد أن يطاع.
- أرجو أن يكون بوسعي عمله تنحنح مراد وبدأ سرد موضوعه
- أنت تعرف يا أخي أن الله أنعم على بثروة ولكن تنقصني نعمة الولد.
- كيف ذلك. هل نسيت ابنتك هند؟
- لم أنسها يا عزيزي ولكن ليس الذكر كالأنثى. أعتقد أنك تعرف ما أعني.
- تعني أنك تريد أخذ أحد أولادي الذكور.
- نعم هكذا قالت الأم. وليكن سامي.

سرى التوتر بين الأطفال لدا سماعهم الخبر. سامي! شقيقهم الحبيب يسافر بعيدا

- تأخذ سامي!

- نعم سأجعله كإبني تماما، سأوفر له جميع فرص التعليم وأعدك أنه سيكون في أمن وأمان.

ظهر التفكير على وجه عدلي ثم قطب جبينه.

- أنا ليس لدي مانع أن تأخذهم كلهم إذا شئت ولكن زهرة ستحيل حياتي إلى جحيم وأنت تعرفها جيدا.

- لا عليك ستثور قليلا وعندما تحتكم إلى عقلها سوف تتغلب المصلحة على عاطفة الأمومة ستتفهم ذلك.

دخل سامي يحمل الناي.

كان لا يدري ما يدور بخصوصه. حيا سامي عمه في ود ودخل إلى إحدى الحجرات، كان مراد يتأمله في اعجاب. اعجاب الرجل الذي لم ينعم عليه بنعمة الولد الذكر. تتبع عدلي أثر ابنه بعينيه اللتين زالت آثار السكر عنهما تماما وبدت صافيتين وصاح:

- سامي. تعال هنا. التفت سامي وأخذ ينظر إلى أبيه في توجس

- نعم يا أبي.

- ستسافر مع عمك لتقيم معه في القاهرة...

- لكن يا أبي أنا.

قاطعه والده بحده

- تعسا لك أيها الغبي. ما الذي يعجبك هنا؟ جهز نفسك للرحيل، هيا انصرف.

لمعت الدموع في عيني سامي، كان بقية الأطفال يحملقون في دهشة وذهول، كم تبعد القاهرة هذه عن خيالهم البسيط. دخل سامي الحجرة وجمع ملابسه في عصبية وقد تطايرت في ذهنه الأفكار فعلا إن بقاءه لا يفيد. خاصة وأنه لديه طموحات جبارة وها قد أتته

الفرصة تسعى على قدمين. لكن أمه. اشقاؤه... قطع صياح والده خارج المنزل الممزوج بهدير المحرك حبل أفكاره. اندفع خارجا لا يلوي على شيء حتى إنه لم يلق نظرة وداع على اشقائه الذين انزويا جميعهم بعيدا وهم يودعونه بدموع تناثرت من أعينهم كالمطر. اندفعت السيارة تشق طرقات القرية وسامي ينظر بعين دامعة إلى معالم القرية، دكان الحاج إبراهيم، المدرسة، المقابر، قبة الشيخ صالح، المزارع الخضراء الممتدة في الأفق البعيد وطيف أمه البعيد، تحزم ربط البرسيم وترفعها على حمارها وتبدأ رحلة العودة وكما ظهرت العربة اختفت كالحلم في الأفق وسائقها يكاد يطير من الفرح، سامي ابن أخيه وحلمه الذي تحقق سيصنع منه رجل عظيم وستفرح به زوجته الطيبة فاطمة وابنته هند أيضا.

كان الحمار يشق طرقات القرية ينوء بحمله الثقيل، زهرة وحزم البرسيم وقد تعالى آذان المغرب، القت زهرة التحية على الحاج إبراهيم بفتور في أثناء مرورها أمام متجره وما أن اقتربت من المنزل حتى صاحت بصوتها الرفيع.

- سامي، أشرف، قفزت من الحمار بخفة وربطته عند الباب. لمحت زهرة آثار السيارة التي ما زالت واضحة أمام الباب. حدقت في الآثار في توجس انفتح الباب وأطل منه أشرف، بدأ أشرف يساعد أمه في إنزال حزم العلف من على ظهر الحمار المنهك. لم تلاحظ زهرة الوجوم الذي خيم على ابنها ودلفا إلى داخل المنزل، حيث كان عدلي كالمعتاد نائما في فراشه، بعد تناوله الجرعة المسائية من الخمر. وهو يسب ويلعن اعداءه الوهميين، دارت زهرة ببصرها تتفقد أولادها، رباب تحمل مازن عن كثب. شيماء تعد شاي المغربية. هناك أحدا غائب. أحست أن أولادها يبدون غير طبيعيين، تمتمت زهرة في توجس

- ماذا بكم يا أولاد. أين سامي؟
نظر أشرف إلى أمه في حزن وطفرت دمعة من عينيه ثم أجابها.
- أخذه عمي مراد الذي حضر في الظهيرة. ليقيم معه في القاهرة.
وقع الخبر على زهرة كالصاعقة، ونهضت كالملسوعة واندفعت نحو زوجها النائم وهزته بعنف حتى استيقظ وهي تصرخ وتولول:
- أين سامي يا عدلي. أين ولدي أيها السكير التعس؟
هب عدلي مذعورا وأخذ يحملق في زوجته التي انقلبت سحنتها تماما.
- لا أعرف، أكله الاسد!
طفرت الدموع من عينيها وقد اجتاحها شعور عميق بالهزيمة أنه الآن يسخر منها. أخذت تهزه بقوه.
- لماذا تركت مراد يأخذه. لماذا؟
بدأت أمارات الغضب تنتشر على وجه عدلي وازاحها بعيدا وصاح بأعلى صوته.
- تعسا لك. تعسا لكم جميعا. فليأخذكم الشيطان جميعا أنت وبقية الأولاد. اغربي عن وجهي! ثم عاد إلى نومه مرة أخرى. استدارت زهرة وانزوت جالسة في ركن قصي وهي تنظر إلى أولادها حولها وهي تنوح وتندب حظها العاثر. القاهرة تعني الموت. القاهرة حيث تكثر الحوادث وجرائم القتل. هكذا حدثت نفسها

- ماذا فعلت ياعدلي؟
كيف تتخلى عن ابنائك تبا لك؟
كانت الأفكار تتضارب في عقل زهرة كأمواج البحر الهائج " لا بدَّ من الذهاب الآن إلى القاهرة مهما كلفها الأمر. لكن كيف؟ " وهي لا تعرف من أين تبدأ أو اين تقع القاهرة وهي لم تعبر النهر إلى البر الغربي من قبل. لكن لا بد من السفر حتما ستصل إلى القاهرة وتعود

بابنها حتى لو كلفها حياتها. يجب أن تتذرع بالصبر الآن حتى لا تفزع أولادها. انهارت زهرة على السرير متظاهرة بالنوم وبدأ أولادها يذهبون نحو مضاجعهم في صمت وعم السكون الدار مرة أخرى ما عدا نوم عدلي المتقطع الممزوج بالشتائم والسباب بين الفينة والفينة التي يكيلها لأعدائه الوهميين. وزجاجة الخمر الملقاة تحت فراشه تلمع تحت ضوء القمر. كان القمر بازغا في تلك الليلة وأشعته الفضية تغمر المكان وتلقي ظلال ساحرة في الدار. نهضت زهرة في هدوء ودخلت إلى حجرتها. حملت صرة ملابسها ونقودها ثم عادت واتجهت نحو فراش شيماء وأخذت توقظها برفق. هبت شيماء مذعورة وهدأت عندما لمحت وجه أمها الهادئ يبتسم لها مبلل بالدموع الجافة التي كانت تتلامع مع ضوء القمر.

- لا تفزعي يا بنتي. اهتمي بأخوتك. أني ذاهبة لأحضر سامي. - لكن يا أماه الليل و.......

- لا تخافي على يا حبيبتي، ماذا يفعل قطاع الطرق بامرأة عجوز مثلي؟

نهضت زهرة من جوار ابنتها واتجهت نحو فراش مازن النائم وحملته وقبلته بقوة وعادت به إلى جوار شيماء.

- نامي يا بنتي. أمك امرأة شجاعة لا تخافي أبدا.

نهضت زهرة واتجهت نحو فراش ابنها أشرف وأخذت توقظه بهدوء.

- قم يا أشرف. أنا أمك فتح أشرف عينيه في ذعر، يبدو أنه كان يعاني من كوابيس مزعجة.

- ماذا! من؟ أمي.

- نعم يا ولدي. امك ذاهبة إلى سامي. هيا أنهض لتقوم بتوصيلي إلى مرسى المعدية عند ضفة النيل.

- لكن يا أمي القاهرة بعيدة جدا.

- نعم يا ابني أعلم أنها بعيدة ولكن لا بد منها وإن طال السفر، هيا انهض لتجهيز الحمار.

نهض أشرف وخرج يجهز الحمار، نهضت زهرة واتجهت نحو فراش زوجها اللدود النائم. سحبت عليه الغطاء بحنان بالغ تقيه برد الأسحار واستدارت منصرفة خلف ابنها، لازال القمر اللامع يركض خلف نتف السحب، زهرة وابنها يشقان طريقهما بين اشجار النخيل حيث تداعى إلى مسامعهما صوت عبد الفتاح المراكبي من أبناء قرية البر الغربي، كان في صباه شاب قوي ومن أكثر المعجبين بزهرة حتى إنه كان يجازف بحياته بعبور النهر لرؤيتها وهي تملأ سطليها من ماء النهر وكم نظم فيها من قصائد. كان ذلك زمن ولي. اقترب الحمار براكبيه من الرجل الذي أخذ يحملق في طيفهما في دهشة.

- السلام عليكم يا عبد الفتاح.

انساب صوتها على اذنه كالجرس وايقظ فيه جروح قديمة.

- أهلا زهرة. ماذا أتى بك في هذا الليل المتأخر؟

- اريد العبور إلى البر الغربي هل لديك مانع.

- ابدا هذا ما يسرني. هل سيعبر ابنك معك؟

- لا سوف أعبر وحدي.

التفتت زهرة تودع ابنها الذي اعتصره الألم وطفرت الدموع من عينيه مسحت ملكة دموع أبنها.

- لا يا أشرف الرجال لا يبكون. أرعى اخوتك حتى أعود.

اندفعت نحو المعدية، وقف أشرف عند الشاطئ يلوح لأمه التي أبحر بها القارب يشق الماء الذي اكسبه ضوء القمر لون اللجين المصهور، جلست زهرة امام الرجل الذي بدأ يجدف مبتعدا. أخذت زهرة تحدق في طيف ابنها الذي وقف عند الشاطئ ممسكا بالحمار ويلوح لها بيده. ظل المركب يبتعد تدريجيا من الشاطئ واقترب

الشاطئ الآخر رويدا رويدا وبدأت الرياح الخفيفة تعبث بأثواب زهرة وهي تجلس منكمشة عند حافة القارب وقد انتابتها الهواجس حتى أنها لم تفطن إلى النظرات الماجنة التي كان يتفحص بها الرجل جسدها كلما انكشف منه جزء بفعل الرياح، اقترب المركب من الشاطئ المقابل أكثر وعينين الرجل قد امتلأتا ببريق الشهوة. ترك عبد الفتاح المجداف واقترب منها، ووضع يده على جسدها. تنبهت زهرة فجأة ونهضت ورفعت يد الرجل بعيدا وقد امتلأت عيناها رعبا، صارخة في وجهه:

- اتق الله يا رجل؟ لم يأبه الرجل لكلامها وقد استيقظت فيه كل كوامن الماضي وزاد من مداعباته أكثر، حاول أن يضمها إلى صدره، لم تحتمل زهرة هذا وانتابها شعور عميق بالقرف وصفعته بقوه. اثارت الصفعة جميع كوامن الرجل الحيوانية واندفع يريد تطويقها بكلتا يديه وهي تقاومه بكل ما اوتيت من قوه وفجأه انقلب المركب في الماء. اطفأ الماء البارد شهوة الرجل المتأججة كما يطفئ الماء قطعة حديد متوهجة وبدأ الرجل يسبح جاهدا في اتجاه زهرة التي شارفت على الغرق وهو يسب ويلعن الشيطان الذي لعب بعقله وكان يقوده إلى ما لا يحمد عقباه، سحب الرجل جسد زهرة إلى الشاطئ وهي فاقده للوعي تماما. جرها بعيدا عن الشاطئ والقى بها على الرمال الناعمة وسبح عائدا لإنقاذ مركبة الذي أخذ يغرق تدريجيا، دفع الرجل مركبه إلى الشاطئ وربطه بإحكام وابتعد نحو قريته التي كانت تلوح عن كثب دون أن يلتفت إلى الجسد الممدد على الشاطئ الذي تركه خلفه، وقد تسارعت انفاسه وهو يتمتم ويتعوذ بالله. ظلت زهرة ممددة على الشاطئ بلا حراك تعبث بها الرياح.

الفصل الثالث

وفي الصباح استفاقت زهرة من إغمائها بقيت مذهولة لمدة لا بأس بها عاجزة عن إتيان أي حركة ثم نهضت بتمهل وهي تحملق ببصرها في أرجاء المكان ثم بدأت تسير بمحاذات الشاطئ في طريقها إلى داخل المدينة التي كانت تتأهب لاستقبال يوم جديد، أخذت زهرة تتأمل في اعجاب وانبهار شوارع المدينة المنتظمة ومتاجرها المكتظة بالبضائع ذات الألوان الزاهية، وبينما هي تسير ساهمة، دوت فرملة سيارة مندفعة نحوها، كادت السيارة تدهسها، سقطت على الأرض نزل السائق، رجل وقور في هيئته، يبدو أنه من أعيان المدينة. كان الانزعاج باديا عليه، انحنى الرجل مقتربا من زهرة التي أخذت ترتجف رعبا وغضبا، هل كان مقدرا لها أن تنتهي رحلتها هنا؟ ومن أول خطوة. أو غرقا بالأمس. يبدو أن الطريق أصعب مما كانت تتصور، وأخذ يربت على كتفيها برفق.

- أرجو أن لا تكوني أصبت!

نهضت زهرة والرجل واقف جوارها وقد اعتصره الألم، نظرت زهرة إليه، تبدو علية الطيبة والسماحة قررت ان تلقنه درسا لن ينساه.

- ماذا دهاك، هل تقود سيارتك مغمض العينين؟

جاهد الرجل الابتسام وأخذ يحملق فيها في ذهول محاولا امتصاص غضبها.

- ابدا، كنت في عجلة من أمري، زوجتي أدركها المخاض، وإني في طريقي لإحضار طبيبة المدينة الشؤم.

استغربت! زهرة من كلام الرجل ووصفه لطبيبة المدينة بالشؤم.

- ماذا دهى طبيبة مدينتكم هذه؟

- كلما أحضرتها تضع زوجتي بنت حتى أصبح لدي سبع بنات ولا مولود ذكر واحد.
- لا عليك أني اتقن مهنة التوليد ويمكنك أن تتفاءل فقط الأرزاق من عند الله...
- ونعم بالله ... ونعم بالله.
غمرت السعادة الرجل.

هذه المرأة الغريبة لا بد أن تكون ساقتها الأقدار لأجل حكمة ما، إنها تتقن مهنة التوليد، ابتسم الرجل ابتسامة عريضة وفتح لها باب العربة لتجلس جواره وانطلق بها إلى بيته العامر الذي يطل على النيل. بهر البيت زهرة فهي لم تشاهد بيوت بهذا البهاء والاتساع. كان البيت بحجراته الواسعة الكبيرة وأثاثه الفاخر أشبه بقصور ألف ليلة وليلة. وفي بهو المنزل كانت هناك كثير من النسوة يجلسن في ركن من اركانه وكأنهن في حالة ترقب لشيء ما واخذا ينظرن إلى الحاج محمود والمرأة الغريبة التي حضرت معه داخل البهو الكبير، كانت نظرات النسوة ملؤها الحقد والحسد وهن ينظرن إلى الحجرة المغلقة التي ينبعث منها أنين امرأة أدركها المخاض. كانت عيون النسوة يملئها الحسد، كلهن كانو يتمنينه زوجا لهن حتى ولو تزوج إحداهن أو ثلاث منهن مع زوجته المسكينة المغلوبة على أمرها في الداخل. الحاج محمود رجل ثري ولكن ليس له البنون بالإضافة إلى أنه رجل شهم وفيه كل ما يعجب المرأة من مقومات الرجولة والاخلاق الأصيلة. فهمت زهرة ضمنا وهي تشق طريقها بين اكوام النساء العوانس الحاقدات، بمجرد أن تلد هذه المرأة التعيسة التي بالداخل بنتا أخرى ستنتظرها المعادلة الصعبة إما الطلاق أو الزواج من امرأة أخرى. كان الله في عونها. دخلت زهرة إلى الحجرة واغلقت الباب. كانت رائحة المطهر القوي تعبق في الحجرة، نظرت زهرة إلى المرأة التي ظل انينها يطغي على الثرثرة المنبعث من

أولئك النسوة في البهو وهن يتداولن أمرها حتى يصل ذلك إلى مسامع الحاج محمود الذي ظل كلامهن يؤخذه كوخز الإبر، فهو يحب زوجته فاطمة ولا يرض لها بديل، لكن من يستطيع أن يقنع أمه التي تزعمت هذا الوفد النسائي العظيم ويبدو أنها ستفرض عليه ما تريد فرضا. في الحجرة كل شيء نظيف ومرتب، وإناء كبير مليء بالماء الساخن، الضمادات البيضاء، المقصات وأدوات القطع والخياطة، أوجست زهرة خيفة وهي تركع بين فخذي المرأة "تبا لهذا البلد اللعين. الذي يذبح المرأة ويجعل من بوابة الخروج من ظلمات الرحم إلى عالم الشهادة صعبا وأحيانا تزهق روح المرأة قبل أن تقذف بمولودها إلى العالم، غسلت زهرة يديها بالماء الساخن ومسحتهما بالزيت الذي وضع على إناء في منضدة جوارها ثم أدخلت يدها في النفق المظلم، وبرز رأس الطفل وأخيرا تمكنت زهرة من اخراجه، كتلة حمراء من اللحم مخضبة بالدماء ولا حول له ولا قوة. كانت صرخته باستقبال الحياة قوية تردد صداها في المنزل وتجاوبت معها النسوة في الفناء بإطلاق زغاريدهن الطويلة يغلفها الحسرة. غسلت زهرة الطفل في الماء الطاهر، بعد أن قطعت حبله السري، ثم اخرجته وحدقت بين قدميه. امتلأت عيناها بدموع الفرح وارتسمت على شفتيها ابتسامة ظفر واطلقت زغرودة جلجلت في الحجرة. ثم نظرت إلى وجه المرأة الشاحب وابتسمت لها مشجعة، كانت المرأة تهمس بكلام وبصوت خفيض اقتربت زهرة من المرأة. التي قالت:

- ارجوا أن يكون ولد!
- نعم المولود ذكر والحمد لله.
رددت فاطمة في صوت واهن:
- الحمد لله، كان سيتزوج من أخرى.
مسحت زهرة حبات العرق عن جبين فاطمة الشاحب مواسية لها.

- لا عليك ارتاحي الآن وقرى عينا، دعيني أخرج وأزف النبأ السعيد.
نهضت زهرة وفتحت باب الحجرة، كان الرجل يجوس وسط النسوة كالأسد الجريح وما أن لمح الباب يفتح حتى اندفع نحوه وواجه ابتسامة زهرة العريضة.
- مبروك. أصبح لك غلام تفخر به.
لم يحتمل الرجل المفاجئة، طفرت الدموع من عينيه وظل يحدق في زهرة في امتنان، نظرة إنسان انقذته امرأة من مصير محتوم. رباه من أين جاءت هذه المرأة التي تحيل كل ما تلمسه ذهبا، كان الرجل من فرط سروره يتمنى لو تطلب منه زهرة أن يحضر لها نجمة من السماء. حتى يجزي لها صنيعها، لكنها فقط آثرت الصمت، ذلك الصمت المشوب بالحزن وطفقت تحملق في أكوام النسوة الحاقدات وقد خسر جوادهن الرهان. كن يرمقن زهرة شذرا. ظل الرجل النبيل يحدق في زهرة.

- انت امرأة مبروكة. لا بد أن السماء ارسلتك لنا.

- بارك الله فيك. أنا لا أريد منك إلا أن تأخذني إلى محطة القطار الذي يقودني إلى القاهرة.

لمح الرجل نظرة الإصرار على الرحيل التي كانت تشع من عينيها فأذعن لها. انطلق بها بسيارته إلى محطة القطار. اشترى لها تذكرة في الدرجة الأولى، جلست زهرة بجوار النافذة والرجل السعيد يقف امام النافذة، دق جرس المحطة معلنا رحيل القطار واطلق القطار صفيرا طويلا وتحرك رويدا رويدا كان الرجل يسير على الرصيف بمحاذاة نافذتها والقطار تتزايد سرعته تدريجيا وكأنما تذكر الرجل شيئا. صاح بصوته الجهوري.

- ماذا أسمي الولد؟

رفعت زهرة البرقع حتى لا يطغى صوتها على دوى عجلات القطار ونداءات الباعة المتجولين ولغط المسافرين والمودعين.

- اسموه محمد. الله يبارك فيه.

ثم ابتعد القطار والرجل يلوح لها بكلتا يديه حتى غاب في الأفق. استوت زهرة جالسة في الغرفة الفارهة التي أكرمها بها الرجل، انتابتها الهواجس وتوزع خاطرها بين أسرتها التي تركتها خلفها وابنها الذي أصبح في طي المجهول في القاهرة، حيث الموت يكمن في كل مكان. ظل القطار يطوي الطريق والمحطات تتوالى تباعا وعجلات القطار تثير في دورانها الغبار. أغلقت زهرة النافذة وأغمضت عينيها.

الفصل الرابع

كانت زهرة تغفو مع الاهتزاز المنتظم للقطار ودوي العجلات يدق أنغام رتيبة كبندول الساعة القديمة لم تكلف زهرة نفسها متعة النظر من النافذة. فقد أوصدتها بعد احتدام الغبار. القطار المكتظ يتلوى كالثعبان في الفيافي الموحشة والظلام قد بدأ يلف الكون بغلالة رقيقة. صراخ الأطفال في العربات المتهالكة المظلمة يتداعى إلى مسامع زهرة بين الفينة والفينة مهيجا أشجانها. ممرات القطار مكتظة بالركاب وتسلق نفر غير قليل منهم على سطوح العربات! هذا القطار الذي ينقل المسافرين عبر مئات الأميال من مدينة إلى مدينة حتى يصل إلى عاصمة البلاد القاهرة. لم يكن خيال زهرة يتسع لهذه المسافات الشاسعة التي يطويها القطار. النجوم تلمع في الأفق خلف زجاج النافذة الأحمر كأنها عيون تسخر من زهرة التي فرقتها الهواجس... غفت مرة أخرى ولم تستيقظ إلا على صوت حركة كثيرة خارج القطار المتوقف على ما يبدو منذ مدة طويلة. فتحت زهرة النافذة وشاهدت مدينة حديثه وعمران يفوق تصورها. بهرتها الأنوار الكهربائية في المحطة. "هل هذه القاهرة؟ ". لم تكلف ملكة نفسها مشقة السؤال. تناولت صرة ملابسها ونزلت من القطار وانطلق القطار مواصلا رحلته، نظرت إلى القطار الراحل في حيرة حتى غاب عن ناظرها. ثم طفقت تتجول في المحطة المكتظة بالناس وتتلفت في توجس كعادة أهل القرى عند دخولهم المدن الكبيرة. اقتربت من شاب موفور الصحة يتحدث مع فتاة جميلة في مكان منزوي، حاولت زهرة تستفسر منه إذا كانت هذه المدينة القاهرة أم لا.

- معذرة يا أولادي. هل هذه محطة القاهرة. أجابها الشاب الذي استدار في دهشة بالغة.
- لا ... هذه اسيوط. القاهرة ليس بعد.اخطأت يا والدتي بنزولك من القطار.

عقدت الدهشة لسان زهرة "يا لها من غبية، لماذا لم تسأل قبل رحيل القطار؟ ". خافت أن يخدعها أحد الخبثاء في المدينة كما تعود أهل القرى. لكن يا لها من بلهاء فقد خدعت نفسها. وهذا الشاب يبدو عليه الاحترام لم يقل سوى الحقيقة. لمح الشباب الحيرة البادية على وجهها الذي كساه القنوط أيضا، عادت الأقدار تعبث بها مرة أخرى، نظر إليها في عطف مواسيا ثم التفت إلى فتاته وقال:

- لماذا لا نأخذها معنا البيت؟
- أجل لا بد من أن نأخذها معنا. هذه القروية المسكينة.

نظرت زهرة إلى هذا الثنائي العجيب في امتنان. شكرت الله الذي سخر لها هذين الضيفين الودودين والقاهما في طريقها.

- هيا بنا يا أماه إلى البيت وان غدا لناظره قريب.
- أسمي زهرة بارك الله فيكم.

وتحركت معهما، لاحظت زهرة بحاسة الأمومة التي لا تخطئ أن الشاب والفتاة يعانيان من مشكلة، خاصة وأن الحزن كان بملأ صوت الفتى قبل أن تقطع لهما حوارهما بظهورها المفاجئ. انطلق ثلاثتهم خارج المحطة التي عمها الهدوء بعد رحيل القطار، كانت سيارة الشاب تقف بجوار المحطة استقلوا السيارة وانطلقت تشق شوارع المدينة الهادئة، ثم عبر الجسر المقام على نهر النيل ولاحت أنوار مصنع الاسمنت لعيون زهرة مثيرا فضولها القروي. لاحظ الشاب ذلك وتحدث باسما.

- هذا مصنع اسمنت اسيوط. أنا أسمي عصام وأعمل مهندسا فيه وهذه الفتاة تدعى حنان وتعمل في المعمل المركزي ... و... ارتبك الشاب وعجز عن مواصلة حديثه ولكن نظرات زهرة المطمئنة حثته على استرسال معها في الحديث.

- كل ما في الأمر أني أحب هذه الفتاة. وعازم على الزواج منها ولكن أمي لها رأي آخر وتقف حجر عثرة في طريقي.

التفتت زهرة إلى الفتاة التي اغرورقت عيناها بالدمع ثم نظرت إلى الشاب الذي لاذ بالصمت.

- لماذا لا تريد أمك ذلك؟ رد الشاب في أسى:

- كانت هناك مشاكل ونزاع حاد بين المرحوم والدي ووالد حنان وعلينا نحن أن ندفع ثمن ذلك.

واردفت حنان من خلال الكلمات التي خنقتها

- أم عصام تريده أن يتزوج بنت أختها. وهي تتذرع بهذا الحجة الواهية.

أثارت هذه القصة المؤثرة اشجان زهرة. وهي تعرف ماذا يعني أن يكون هناك قلبين عاشقين في محنة. كيف لا تعرف ذلك وهي امرأة عركتها الحياة وصقلتها التجارب. كانت تجلس بين الشابين وتفكر في طريقة تربط بها جسور المحبة الممتدة بين العاشقين الصغيرين.

- إذا كانت هذه مشكلتكما اعتبروها محلولة. أدهش رد زهرة الجريء وبنبرتها الواثقة عصام حتى إنه كاد يدهس قطه كانت تعبر الشارع في تكاسل أمام السيارة المنطلقة وانحرف عنها عصام في آخر لحظة وطوح بالسيارة، اطلقت حنان صرخة ذعر اخافته. وعادت زهرة مرة أخرى إلى صمتها. والعربة منطلقة وعصام وحنان في حيره من

أمرهما " ما سر هذه المرأة الغريبة؟ ". بعد وقت قصير تسألت زهرة:
- ما اسم المرحوم والدك يا عصام؟
- اسمه سيد عبد الجواد.- وأنت يا حنان
- عبد الله نصر الدين وهو لا يزال على قيد الحياة.
- حسنا، خذني يا عصام إلى أمك. أبيت ليلتي معها وغدا في الصباح تجد أمك قد أذعنت لك.
أطلق عصام صيحة تفاؤل عظيمة. كان يثق في كلام هذه المرأة الحديدية التي تتكلم بثقة مفرطة لم يعهدها في أحد من قبل أن أهل القرى أذكياء، فقط ينقصهم التعليم، وما يضيره لو أنه ركن إليها حتى لو مجرد تفاؤل!

- إذا وافقت أمي. سأتزوج فورا وسيكون لي معك شأن آخر.

- إن شاء الله يا أبني.

ظلت السيارة منطلقة في الشارع الاسفلتي ولاحت مدخنة المصنع عن بعد. اندفعت السيارة وتخطت بوابة المصنع وتوقفت أمام منزل عصام، منزل مطلي بالجير الأبيض، كانت هناك حديقة جميلة نضرة وزهور حمراء تطل من السور " ما هذه المنازل الجميلة التي لم تر زهرة مثلها. نزل ثلاثتهم من العربة، ودعت حنان زهرة وبنظرة أمل ورجاء وجهت لعصام نظرة وداع جسدت فيها كل أمانيها. أخذ عصام يتابعها بنظره حتى دخلت منزلها، ظل عصام يحيطها بمظاهر الود والترحاب، لم تجد زهرة صعوبة كبيرة في اختراق أسوار قلب أم عصام التي كان يبدو عليها إنها من النساء الذي يفرضن رأيهن بالقوة حتى ولو على جثث الآخرين. أدركت زهرة صعوبة المهمة التي تنتظرها. تأملت زهرة البهو الفخم. كانت

هناك صورة لرجل في العقد الرابع من عمره مجللة بالسواد، يبدو أنه والد عصام المرحوم. تناولت زهرة طعام العشاء مع الأسرة الصغيرة في صمت وفي المساء استلقت زهرة المتعبة على فراشها تشاهد التليفزيون، ذلك الصندوق السحري في دهشة، بدأت تدخل عالم المدينة وأجهزتها العجيبة كانت والدة عصام تنظر إلى ابنها الذي يحملق في التليفزيون في شرود وعقله بعيدا، تنحنحت أم عصام

- هل زرت خالتك؟
- لا لم أذهب ولن أذهب. أنا غير مستعد للزواج. كان رد عصام الجازم بمثابة رأيه الدائم في عدم رغبته للاقتران بابنة خالته التي تفرضها عليه أمه، جالت هذه الخواطر في ذهن زهرة وهي تتظاهر بالنوم.
- يا عصام يا ولدي. أنا أريد مصلحتك.
- إذا كنتِ تريدين مصلحتي دعينا من هذا الأمر.
- كيف أتركك وقد اوصاني المرحوم والدك!

جالت الدموع وتساقطت من عيني عصام، عندما نطقت أمه اسم والده الذي كان يوقن تماما أنه لن يرضى بهذا الزواج بالإكراه، إن أمه تشده إلى الحلقة الضعيفة، معزة والده الراحل. ما ذنبه هو وما ذنب حنان. الآباء يزرعون الحصرم والأبناء يضرسونه كان الحوار المؤثر بين عصام وأمه يترامى إلى أذني زهرة المرهقة كأنه قادم من واد بعيد وقد اختمرت الخطة الجهنمية في رأسها ولم تمض سويعات حتى كانت تغط في سبات عميق، نوم امرأة تحمل هموم العالم على كتفيها الذي لم يبارحها قط وتشتت خواطرها بين دارها القابع في الجنوب وابنها الضائع في العاصمة

وزهرة لا تعرف كم تبعد هذه المدينة. التفتت أم عصام إلى زهرة التي كانت تغط في نوم عميق وقد انتظمت أنفاسها.

- نامت المسكينة. يبدو أنها قادمة من مكان بعيد.

- نعم يا أماه وهي لا تعرف الفرق بين اسيوط والقاهرة.

وكعادة النساء وفضولهن رددت أم عصام

- يبدو أن ورائها سر كبير، كان الله في عونها. كانت هذه كلمات أم عصام الأخيرة رددتها وهي تتثاءب، نهض عصام في تثاقل وأغلق التليفزيون واطفأ النور، ثم ذهب إلى حجرته واستلقى في فراشه يحملق في السقف "هل تحل هذه المرأة الغريبة مشكلته العويصة؟ " أتمنى ذلك، تسرب النوم إلى أوصاله. تعالى آذان الفجر في الحجرة الأخرى هبت زهرة مذعورة تتمتم بتعاويذ قرآنية والآذان يجلجل في المكان، هبت معها أم عصام واندفعت نحوها وجلست جوارها مذعورة.

- ماذا بك يا أختي؟ أجابت زهرة مبهورة الانفاس
- بسم الله الرحمن الرحيم. انه الرجل ذو الثوب الأبيض.
دنت منها أم عصام أكثر وقد تملكها الفضول الممزوج بالفزع. اردفت زهرة في نبرة بها رهبة.
- نعم! نزل من قصره المنيف وقال انه حزين لأنه ابنه غير سعيد.
اتسعت عينا أم عصام من فرط الدهشة من هذا الكلام الغريب من المرأة الغريبة.
- ماذا قال الرجل؟
- قال إنه يدعى سيد عبد الجواد
اطلقت أم عصام شهقة خافتة وانهارت باكية على كتف زهرة، بكاء أرملة ظلت وفية لزوجها حتى بعد انتقاله الحسي إلى عالم الغيب واردفت زهرة بصوتها الساحر:

- قال يجب أن يتزوج ابنه بمن يريد حتى يرتاح ومن بين شلالات الدموع الغزيرة التي سكبتها عينا أم عصام أعلنت الإذعان ورفعت الراية البيضاء وتمتمت.

- نعم. فاليتزوج عصام من يريد. ظهر الارتياح على وجه زهرة وابتسمت ورددت متسائلة.
- من هو الرجل ذو الثوب الأبيض؟ أجابت أم عصام في أسى وهي تكفف دموعها.
- إنه زوجي يرحمه الله، توفي وعصام في العاشرة من عمره. ورددت زهرة مواسية
- لا تحزني الرجل ذو الثوب الأبيض في نعيم.

تبددت الأحزان من وجه أم عصام وظهر عليها الارتياح، نهضت من جوار زهرة وخرجت تصلي، ثم عادت إلى فراشها مرة أخرى تنام. نهضت زهرة وصلت بعدها ثم عادت للنوم هي أيضا سعيدة بعد ان تكللت مجهوداتها بالنجاح.

أشرقت الشمس معلنة صباح يوم جديد، حضر عصام يحمل أواني الشاي إلى أمه وضيفتها. ترامى إلى أذنيه حديثهما الودي عن زواجه المرتقب، دخل إلى البهو وتحاشى النظر إلى أمه والتي رمقته بنظرة حب بالغ ممزوج بالندم من ذكريات الليلة الماضية. التقت عيناه بعيني زهرة فأبتسمت له مشجعة، تنفس الصعداء. جلس يشرب الشاي في صمت، التفتت أم عصام إلى ابنها ورددت في نبرة حب بالغ:

- لقد وافقت يا أبني على زواجك من حنان. هب عصام كالملسوع وانسكب الشاي الساخن على أصابعه وهو لا يصدق اذنيه. "هذه

المرأة التي يشع منها الغموض وتجللها الحكمة فعلت ذلك! " احتضن عصام والدته وهي تربت على رأسه في حنان.

- نعم يا أمي سأتزوج حنان وليكن ذلك بعد غد. ولم تكد زهرة تسمع قرار عصام حتى اطلقت زغرودة طويلة ردد صداها المكان.

- نعم يا ابني خير البر عاجله.

كانت أنوار الزينة تجلل المنزل كحبات اللؤلؤ وأم عصام تدور كالنحلة بين المدعوين ومعها تلك المرأة الغريبة التي أثارت فضول واعجاب المدعوين بلباقتها وحضورها الدائم، كان عصام الذي لم تسعه الفرحة وحنان العروس الجميلة التي تعهدتها السعادة بصورة مذهلة لا تعرف حتى هذه اللحظة كيف استطاعت هذه المرأة حل مشكلتهما المزمنة في عشية وضحاها. إنها حكمة الله المتجلية في كل مكان. إنها سعيدة وقد تزوجت من تحب. ظلت الأفراح ممتدة طوال الليل وحتى الخيوط الأولى من الفجر وفي الصباح كانت زهرة تجلس وقد كساها الهم. الذي ما فتئ ينتابها كلما خلت إلى نفسها، لاحظت أم عصام الوجوم الذي يخيم على ضيفتها الطيبة، همست بذلك لابنها عصام الذي أقبل مبتسما وجلس جوار زهرة.

- زهرة العزيزة ... جاء دوري الآن لأسدي لك صنيعا. تنبهت زهرة من شرودها وابتسمت في وجه الشاب.

- ربنا يبارك فيك يا ولدي. خذني إلى محطة القطار المسافر إلى القاهرة؟

- انك أعظم امرأة عرفتها في حياتي. نهض من جوارها.

ودخل إلى المنزل وارتدى ملابسه على عجل. سرعان ما دار محرك السيارة في الخارج وابتعدت إلى الطريق الأسفلتي في طريقها

إلى محطة القطار في مدينة اسيوط. خرجت حنان العروس الجديدة من غرفة نومها ولمحت زهرة التي ما زال الاكتئاب مسيطرا عليها تقبع بعيدا في طرف الفناء الذي ما زالت آثار الحفل المنصرم تخيم عليه، الكراسي مبعثرة هنا وهناك. اقتربت حنان من زهرة.

- صباح الخير.

تنبهت زهرة من شرودها وتأملت العروس التي ترفل في أثوابها. - أهلا يا أبنتي أجلسي لتسمعي كلماتي الأخيرة.

- خير. إن شاء الله

- أوصيك بأم عصام خيرا، عامليها كأمك تماما، لقد ضحت هذه المرأة بزهرة شبابها في تربية ابنها عصام حتى أصبح رجلا وهي لا ترضى أن تأخذه منها امرأة أخرى. وإذا كان لا بد من امرأة فقد اختارت أخف الضررين بإصرارها السابق على الزواج من ابنة أختها. أرجو أن تتفهمي ذلك.

كان حديث زهرة الحكيمة المؤثر يمس شغاف قلب حنان التي ظلت حتى اللحظة لا تجد نفسها تطاوعها على حب أم عصام فقد كانت حجر عثرة في طريق سعادتها. ومع ذلك أذعنت حنان لنصائح زهرة.

- نعم يا أمي زهرة، سأعاملها كوالدتي تماما حتى أثبت لها عمليا أني المرأة المناسبة لابنها عصام.

- بارك الله فيك يا أبنتي.

دخلت أم عصام وهي تحمل أواني الشاي، جلست النسوة الثلاثة يتجاذبن أطراف الحديث. أعلن نفير سيارة في الخارج عن عودة عصام.

دخل المنزل وفي عينيه خيبة أمل وردد في قلق.

- توقفت القاطرات، نتيجة الإضراب عن العمل الذي شل المرفق. كان هذا الكلام يقع على أذن زهرة كالإبر. فهي لا تفقه في السياسة ولكنها عرفت ضمنا أنه لا يوجد قطار يقلها إلى القاهرة في الوقت الراهن وهذا سيضاعف عذابها. انهارت باكية. كان بكاؤها مرا ازعج الأسرة الطيبة التي التفت حولها مواسية. . ولكن عصام اسعفها مواصلا حديثه.

- جهزت لك مقعد في الحافلات التي تسلك طرق برية وعرة. مقعد أمامي أكثر راحة.

- هل سأسافر إذا؟

- غدا صباحا إن شاء الله. لم تصدق زهرة إذنيها. إذا ستسافر ومن خلال وجهها المبلل بالدموع ضحكت في سرور، أسعد الأسرة الكريمة. زهرة تعود إليها سجيتها. وأردف عصام:

- سيقلك الباص إلى مدينة المنيا أولا. هناك سيكون هذا العنوان مكان إقامتك. أصدقائي في المدينة جماعة الأحرار. ادخل عصام يده في جيب سترته وناولها الورقة ثم دخل إلى حجرته وعاد يحمل رزمة أوراق وناولها زهرة قائلا: - بما أنك امرأة ذكية جدا، قررنا ضمك إلى المناضلين. عاد عصام مرة أخرى يتحدث بالألغاز. لكن سعادة زهرة بالرحيل جعلتها تقبل كل الشروط.

- هذا منشورات خطيرة، أخفيها تماما، وعندما تصلي مدينة المنيا أطلبي عربة أجرة واعطى السائق الورقة التي بها العنوان وستجدين الأمور تسير على ما يرام، سيرحب بك الشباب واعتبريهم كأبنائك تماما. أنا شرحت لهم كل شيء في خطابي هذا وسيقومون بتوصيلك إلى القاهرة إلى حيث تريدين. كان لكلام عصام مفعول السحر في أذن زهرة، لم تشعر يوما في حياتها أن لها أهمية كما تشعر الآن، فهي تعشق المخاطر منذ صغرها، كانت تجازف بعبور النيل سباحة أيام تحديها لزوجها العنيد عدلي. في صباح اليوم التالي، كانت زهرة تقف في موقف الباصات في أبهى حلة بعد أن أهداها أهل المنزل السعيد كلا عي حدة قطعة ملابس جديدة. ركبت زهرة الباص الذي كان صوت محركه الدائر يصم الآذان، لم تمضي هنيهات حتى كان الوداع المر ورحلت زهرة كالطيف وتركت خلفها الأسرة السعيدة التي أوشكت الأقدار أن تعبث بها. مع أزيز الباص الذي كان يطوي السهول والوديان والطرق الوعرة غفت زهرة وهي تحلم بالأيام القادمة هل ستكون حبلى بالمفاجئات السعيدة أو المفارقات المحزنة؟ عرفت زهرة بتجاربها الجديدة أن للحياة وجهين، جانب حلو وجانب مر، هاهي الآن تتقدم نحو القاهرة، ودخلت عالم جديد مليء بالألغاز والأوراق الخطيرة التي تحملها. لو أنفقت عمرها كله في القرية لما سمعت به أو رأته. كان الشيء الوحيد الذي يذكرها بعالم السياسية هو الراحل زين الذي مات منذ أمد بعيد. ظل الباص يطوي الأرض وجميع الركاب لاذون بالصمت الرهيب، كانت تلك الأوقات العصيبة عندما بدأت البلاد تهوي نحو القاع بخطر داهم وكثرت الاضطرابات والإضرابات وقد شل إضراب عمال السكك الحديدية كل البلاد واصبحت مصر أشبه بشيخ هرم تيبست مفاصله ملقي على قارعة الطريق ينتظر الموت البطيء القادم من المجهول.

الفصل الخامس

وصلت السيارة إلى مدينة المنيا والشمس تصلي الأرض بشواظ من النار، نزلت زهرة دون أن تتلفت كثيرا هذه المرة كعادة أهل القرى، فقد أصبحت أكثر تمرسا على حياة المدن. اتجهت صوب موقف سيارات الأجرة واستقلت أحداها بعد أن أعطت السائق الورقة التي بها العنوان. انطلقت السيارة تشق شوارع المنيا المتربة، مثيرة في سيرها عاصفة من الغبار. وصلت السيارة إلى العنوان المطلوب. نزلت زهرة وهي تحضن صرة ملابسها بقوة، خاصة بعد أن عرفت أهمية الأوراق والمنشورات التي تحملها. اقتربت من الباب الحديدي المطلي باللون الأحمر وقرعته قرعا خفيفا، أحست بحركة غير عادية تدب داخل المنزل الهادئ الذي كان يبدو شبه مهجور من فرط الهدوء المخيم عليه. ثم انفتح الباب واطل منه عينان مذعورتان لشاب في مقتبل العمر، اعتاد مداهمة رجال الأمن، عندما لمح الزائرة ذات المظهر الساذج اطمأن قلبه، وابتسمت له زهرة مشجعة.

- السلام عليكم.

- أهلا يا والدتي. تفضلي بالدخول.

قال الشاب ذلك بهدوء لا يخلو من الحذر وأفسح لها الطريق وما كادت تتوسط الفناء حتى قفز ثلاث شباب آخرين من على حائط المنزل المجاور. أثار ذلك فزع زهرة لأول وهلة. ضحك الأربعة وأخذوا ينظرون إلى زهرة في دهشة لم تدم طويلا.

- أنتم جماعة الأحرار؟

باغت هذا الاستفسار الشباب الذي فتح الباب،

- نعم. من أين عرفتي هذا الاسم السري.

- ارسلني لكم عصام عبد الجواد، مهندس في اسمنت اسيوط.

- عصام. يا اهلا بك.

ذابت جميع ثلوج الشك في نفوس الشباب وكان فرحهم بوجود زهرة بينهم عظيما ودخلوا إلى حجرة العمليات، كانت بها كمبيوتر وأوراق طباعة وشعار مكتوب على قماشة وأربعة أسرة، جلست زهرة على إحداها تتأمل هذه الخلية النشطة في اعتزاز ثم فتحت صرت الملابس وأخرجت المنشورات وسلمتها إلى الشاب الذي فتح الباب. فض الشباب المظروف المرفق مع المنشورات وأخذ يقرأ وبين الفينة والفنية ينظر إلى زهرة في اعجاب شديد ثم ردد في انبهار.

- هذه المرأة عظيمة. كما يقول عصام.

التفت الشاب إلى زهرة في اعجاب شديد معرفا نفسه

- نحن مجموعة الأحرار، أنا سالم، وهذا عمر وهذا امجد وذاك ماهر.

كان اعجاب زهرة بهذا العقد الفريد عزيما. أولاد في سن ابناءها يشتغلون بالسياسة ويقدمون على الاهوال والمخاطر.

ما الذي يدفعهم إلى هذا؟ سؤال عويص لم تجد له إجابة.

- بارك الله فيكم يا أولادي.

- نامي الآن... واستريحي يا أماه.

أومأ لها سالم في عطف وانهمك في عمله على الكمبيوتر،

كان يسعل بصورة متقطعة اثار ذلك شفقة زهرة، انه يعاني من داء الربو اللعين. جعله يسعل طوال الليل ويدخل ذلك الدواء البخاخ العجيب في فمه ويستنشقه بعنف حتى تهدأ أنفاسه، جلس عمر صاحب الخط البديع يكمل ما بدأه على قطعة القماش المشدودة أمامه. عبارات موجهة ضد السلطة. ظلت زهرة تنظر إلى هذه الألغاز في فضول قروي. امجد يجمع قصاصات ورق من صحف قديمة. تردد في نفس زهرة الطيبة أكثر من سؤال حائر من هؤلاء؟ أين ابائهم وامهاتهم؟ ... ما طبيعة العمل الذي يقومون به. الغاز. الغاز.

قطع طرق مدوي على باب الفناء حبل أفكار زهرة التي كانت اغمضت عيناها في استسلام للنوم، تلفت الشباب إلى بعضهم في حذر وهرع كل منهم يحمل كل ما يمكن أن يدينهم وقفزوا من الحائط إلى المنزل المجاور ومعهم الكمبيوتر والمنشورات. خرج سالم وفتح الباب للرجال الذين يعرفهم جيدا. اندفع الرجال داخل المنزل يبحثون في كل مكان دون أن تثير زهرة النائمة فضولهم. وفي المنزل المجاور اكتشف بقية الأصدقاء انهم نسوا الشعار القماشي مطويا جوار زهرة النائمة. دب الذعر في أوصالهم، اراد عمر أن يقفز عائدا وليكن ما يكون ولكن رفيقيه المذعورين تشبثا به. قد تملكهم خوف شديد على صديقهم في الداخل، والمرأة الغريبة. كانت احسوا بالذعور وهم يبتهلون أن لا يقع الشعار في رجال الأمن. هدأت هواجسهم فجأة نتيجة للهدوء الذي ساد المنزل بعد انصراف رجال الأمن. سمعوا صافرة الأمان التي أطلقها زميلهم. قفز ثلاثتهم السور عائدين، صرخ عمر الذي لم يعرف ماذا حدث

- سالم! لقد نسينا الشعار. - الشعار! .
-أي شعار؟
كان رد سالم الهادئ بمثابة الماء الذي انصب على النار.
- نسينا الشعار في الحجرة ألم يراه رجال الأمن؟
- لا أدري! لم يكن هناك شعار.
دخل الجميع الحجرة حيث كانت ترقد زهرة وهي نائمة، دار اللغط بين الأصدقاء حول الشعار الذي تبخر في الهواء هل هناك قوة خفية أخذته؟ المرأة الغامضة قطعت قول كل خطيب استوت جالسة واخرجت الشعار من تحت وسادتها وناولته إلى سالم، حدق فيها الأصدقاء وقد ألجمتهم الدهشة.

- هل تعنون هذه القطعة الملونة من القماش؟ لم يصدق الرفاق أعينهم. هذه المرأة فعلا امرأة خارقة هذه القروية تفعل أشياء عظيمة تفوق التصور. غمرت الأصدقاء سعادة عارمة أخذوا يدورون حول زهرة ويهتفون باسمها. كانت زهرة سعيدة لسعادتهم الغامرة وهي لا تدري عظمة العمل الذي قامت به، اشد ما كان يحزنها لماذا يفني هذا الشباب الغض عمره في المخاطر؟ نظرت إليهم متسائلة وقد عاد كل منهم إلى عمله.

- اخبروني يا أولادي. هل أنتم الشيوعيون أم ماذا؟
- نعم البعض شيوعين والبعض الآخر علمانيين. أرجو أن لا تفهميها بصورة مغلوطة، لسنا كفار ولا ملاحدة.
- الحاج إبراهيم في قريتنا يقول عليهم كفار وملاحدة.
بان الحزن والتأثر على الأصدقاء.
- نحن يا والدة نحارب استغلال الإنسان لأخيه الإنسان وبما أن استغلال البسطاء يتم من قبل رجال الدين، ظنتنا الناس أننا نهاجم

الدين. طاف في ذهن زهرة طيف الحاج إبراهيم الذي تبغضه وتعرفه جيدا من صباها الباكر رددت في نفسها إن هذا الشاب يقول الصدق.

- إنك محق فعلا يا أبني فيما تقول وأنا أدري بالحاج إبراهيم.
- نحن نهدف يا أمي إلى التوزيع العادل للثروة والتنمية المتوازنة. وإذا نظرنا إلى علاقات الإنتاج السائدة ...
و قاطعته زهرة ضاحكة:
- يا أبني أرجوك لا تتحدث إلى بالألغاز وكلام المدارس أنا امرأة أمية. ابتسم سالم وحدق في زهرة التي تذكره دائما بأمه الراحلة عندما كان يناقشها في الماضي، طيب الله ثراها...
- نعم سأتكلم بلغة بسيطة، أنت يا زهرة امرأة ذكية ولكنك لم تجدي فرصة عادلة لتنالي قسطا من التعليم وذلك لأنك عشت في قرية نائية لا تعيرها الحكومة التفاتا. امرأة ذكية مثلك لا تعرف كيف تسافر من قريتها إلى القاهرة وقد عانيت الأمرين في طريقك إلى هنا، كما ذكر لنا عصام. ظل كلام سالم يقع في قلب زهرة مباشرة، فعلا قد قال الحقيقة، عدم التعليم يعطل مواهب الإنسان ويجعله ينقاد خلف من هب ودب، لا يعرف الإنسان الجاهل كيف يميز بين الصديق والعدو،

حتما هذا الشاب يقول الحقيقة طاف في خاطرها شريط طويل من الذكريات المؤلمة منذ رحيلها من القرية حتى وصولها المنيا والمعاناة الشديدة تذكرت رجال الحكومة، أصحاب البدلات العسكرية اللذين زودوا القرية بالوابورات والمعدية والمدرسة الوحيدة. في تلك السنين الغابرة. قارنت في خيالها بين زوجها وأخيه عبد اللطيف عم أولادها الذي له منصب كبير في الحكومة، ويمتلك سيارة وذلك لأنه تلقى تعليما عاليا. ولكن على حساب من؟ في هذه البلاد لا توجد فرص عادلة كما قال هذا الشاب النحيف. ومنذ تلك اللحظة بدأ ذهن زهرة يتضح على أشياء جديدة. عالم الوعي والنضال من أجل

التغيير، ذلك العالم الذي يحترق فيه الإنسان كالشمعة ليضيء للأخرين الطريق. وقد زادها ذلك إصرارا للذهاب إلى القاهرة والعودة بابنها سامي لينضم إلى هذه المجموعة التي تريد أن توفر الحياة الكريمة للناس ويكون لها ابن تفتخر به، كم تفتخر أمهات هؤلاء بهم. ظلت هذه الخواطر تطوف في ذهن زهرة حتى بعد أن انصرف عنها سالم وشرع في مواصلة عمله على الكمبيوتر ثم عادت إلى نومها مرة أخرى وعم الهدوء الذي كان لا يعكره سوى سعال سالم المتقطع. بين الفينة والفنية. "فعلا أنهم احرار" ابتسمت زهرة وهي تعانق الأحلام في الصباح خرجت زهرة مع هذا العقد الفريد من الشباب إلى موقف الباصات التي تقل المسافرين إلى القاهرة، المحطة النهائية من رحلة العزاب، الشباب في قمة الانسجام مع زهرة التي أحبوها من كل قلوبهم. زهرة قد اعتادت حمل المنشورات السياسية. ها هي تحمل منشورات سياسية جديد من مجموعة الأحرار، بغية توصيلها إلى مكتبة شهيرة في القاهرة، كتب لها الشباب عنوانها، كما أخبروها بأنها عند وصولها إلى هذا العنوان سيقومون القائمين على المكتبة بتوصيلها إلى حيث تريد.لم تعد زهرة تخشى التوهان أو الضياع بعد الآن، فقد اصبحت أكثر تمرسا على حياة المدن. صعدت زهرة إلى الباص وسط صيحات الشباب وهتافاتهم. كانت أشبه بمظاهرة، ينشرون البهجة والسرور على كل الناس حولهم في المحطة ومن نافذة السيارة أشارت زهرة لسالم ان يقترب منها همست في أذنه:

- إذا أردتم تفادي رجال الأمن أقتنوا كلابا شرسة، يكون منبه طبيعي لقدوم الغرباء، غير المرغوب فيهم. حتى لا يفاجئوكم بغتة وأنتم غافلون. أدهش هذا الاقتراح سالم واقترب من بقية الأصدقاء ليخبرهم ماذا قالت زهرة. ضحك الأصدقاء. ورفع سالم صوته حتى

يطغى على صوت المحرك الدائر. تحرك الباص مبتعدا والأصدقاء يلوحون بأيديهم حتى غاب في أطراف المدينة. كان الوداع مؤثرا. انطلق بها الباص مرة أخرى يشق وهاد هذا البلد المترامي الأطراف لم تكن هذه الرحلة شاقة كسابقتها. إذ لا تبعد مدينة المنيا عن القاهرة كثيرا، كما أن الطريق أقل وعورة. والباص من النوع السياحي الفخم الذي لم تشهد له زهرة مثيلا يبدو أن الحضارة تزداد كلما اقتربت من القاهرة. أزيز الباص الخافت المنتظم وصوت الراديو الذين يذيع أغاني من ذلك النمط الذي لا تعرفه زهرة كثيرا. وبعد مسيرة ثلاث ساعات لاحت في الأفق البعيد المنازل عديدة الطوابق. ظهرت القاهرة، توقف الباص عند نقطة التفتيش، وشعرت زهرة بالرعب يسري في أوصالها. ما هذا ماذا يريد هؤلاء الجنود اللذين يحملون البنادق؟ سرعان ما تبددت مخاوفها، عندما عرفت إنه إجراء روتيني عادي. تفتيش لأمتعة الرجال وليس النساء، حتى إن الجندي لم يأبه لها في في أثناء تجواله داخل الباص. نزل الجندي وأشار للسائق بالمرور. انطلق الباص في طريقه الأسفلتي وعند أطراف المدينة. ظل الباص في الإهتزاز والأرجحة العنيفة منذ أن لامست إطاراته هذا الشريط الأسود السحري الذي يمتد إلى داخل المدينة الغامضة.

الفصل السادس

مدينة القاهرة، تلك المدينة القاسية دائما على الغرباء والتي تشبه الطاحونة، مدينة التناقضات البديعة، كل تفاصيلها تؤدي إلى النتائج وعكسها بالكامل رأت زهرة عن كثب العمارات التي تمتد ذات اليمين وذات الشمال تفصل بينها طرقات وممرات لا تحصى فكأنها ثكنات هائلة يضل فيها البصر وتيارات من الخلق لا تنقطع وهتافات ونداءات حقيقية تثير اعصابهم القلقة كأعصابها. الغلاء والجوع يزحف بإصرار نحو السواد الأعظم من الناس، وجميع الأمراض الاجتماعية التي تنجم من مثل هذه الأوضاع. البنوك التجارية المشبوهة نمت كالأورام السرطانية واستشرت في العاصمة وكل أنحاء البلاد. وأخذت تمتص عرق ودماء المواطنين. ينتظرون الموت البطيء فقد كان الموت الوسيلة الوحيدة للهروب. ،

هذه هي القاهرة التي دخلتها زهرة لأول مرة في حياتها بحثا عن ابنها سامي. ظلت سيارة الأجرة التي اقلتها من موقف الباصات تشق طرقات القاهرة، كحلت زهرة عينيها بكل هذا التناقض العجيب في العاصمة آنذاك. توقفت السيارة آخيرا أمام مكتبة فخمة بشارع طلعت حرب وأشار السائق لها بالعنوان.

- هذه مكتبة دار الفكر. حسب العنوان.

واستدارت منطلقة بخطى واثقة إلى داخل المكتبة حيث كان يجلس رجل في العقد الرابع من عمره وسط ارتال الكتب يدون في مفكرته أرقاما، يبدو عليه الاهتمام الشديد، حيته زهرة في أدب.

- السلام عليكم.

رفع رجل رأسه من خلال نظارته الطبية وجه إليها نظرة عدم اكتراث ويعزى ذلك لمظهرها القروي.

- اهلا وسهلا.

- أني قادمة إليك من الأحرار في المنيا.

اتسعت عينا الرجل من الدهشة، نهض الرجل وحياها بحرارة، جلست زهرة على الكرسي وناولت الرجل خطاب سالم فضه الرجل على العجل وبدأ يقرأه، بان الاهتمام الممزوج بالدهشة في وجهه. كان يوجه نظرة بين الفينة والفينة إليها فأخذت تنظر إليه في اعتزاز، نهض الرجل مرة أخرى وحياها بحرارة وإجلال وهو يضحك في حبور، يبدو أن رسالة اصدقاءه كانت حافلة بالأخبار.

- لقد أطلق عليك أصدقائي اسم حركي.
- ماذا تعني باسم حركي.
- اسم سري. الأم العظيمة.
ضحكت زهرة لهذا الاسم الجديد.
جعلتموني شيوعية أو علمانية مثلكم وأنا امرأة جاهلة لا أكاد أفقه حديثا.
جلس الرجل وألقى بظهره على مسند الكرسي وأردف في نبرة خطابية.
- أنت لست جاهلة. بل أنت امرأة أمية وهناك فرق شاسع بين الجهل والأمية.
أصبح هذا النوع من الحديث يستهوي زهرة فأومأت موافقة وتابع الرجل حديثه.

- هناك فئة من الناس أمية لا تجيد القراءة والكتابة ولكنها تسير الحياة بالحنكة والذكاء الاجتماعي وهناك فئة من الناس جاهلة بصرف النظر إذا كانت عادية أو تحمل شهادات جامعية والجاهل انعكاساته ضارة بالمجتمع

ظل الرجل يتحدث بأسلوب بلاغي رصين، وكلامه يقع على قلب زهرة مباشرة. زهرة المرأة القروية التي اصبحت أكثر وعيا. واصل الرجل كلامه المؤثر.

- انظري إلى حكومتنا هذه، تعج بأصحاب الشهادات العالية، نسمع جعجعة ولا نرى سوى الغلاء، ولهذا كان هذا السقوط المريع الآن ولا ندرى ماذا يخبئ لنا المستقبل من مفاجآت غير سارة. ظلت زهرة تستمع للرجل في أدب جم، فقد تعلمت حسن الاستماع منذ بداية رحلتها الطويلة، كان الكلام ينحفر في ذاكرتها ولا ينمحي، تنبه الرجل أنه استرسل في الحديث أكثر مما يجب فلاذ بالصمت. ومن الحقيبة الجديدة التي أهداها لها الأشباح أخرجت المنشورات وسلمتها له. أخذ الرجل المنشورات ووضعها في عناية في درج سري على مكتبه ثم نظر إلى زهرة مبتسما.

- اخبرني الرفاق في الرسالة انك تبحثين عن منزل عم أولادك، ما اسمه.

- مراد أحمد البحراوي. المحامي. وقع الاسم على أذن الرجل وقوع الصاعقة واصابه ارتباك شديد، فطنت له زهرة.

- هذا الرجل يحتل منصب خطير الآن في تشكيل الحكومة الجديدة. لم تصدق زهرة أذنيها، هل الأمور تطورت إلى هذا الحد؟ . مراد عم أولادها أصبح من رجال الحكومة. وهي التي كانت ستخبره برحلتها الشاقة وبالتفاصيل المملة، تنبهت زهرة من شرودها وابتسمت

ابتسامة صفراء وقد خلا وجهها من التعبير، نهض الرجل ونادى سائقه الخاص الذي كان يجلس أمام المكتبة يتأمل السيارات المنسابة على الطريق في عدم اكتراث، امره بتوصيل زهرة ... انطلقت السيارة مرة أخرى في شوارع القاهرة الصاخبة. كانت جنة عدن تلوح أمام عينا زهرة، المنازل عديدة الطوابق، تحيط بها الحدائق الغناء وتشدو فيها العصافير، قطعة من الفردوس على الأرض، لكنه فردوس زائف، ظلت زهرة تتأمل هذه العمارات الشاهقة في احتقار، لم تعد قروية تبهرها العمارات الفخمة، بل غدت امرأة واعية. أصبحت زهرة ذات بصيرة نافذة شحذتها التجارب، توقفت العربة أمام القصر المنيف الذي كان عدد العربات المتناثرة أمامه بعدد الكلاب التي تحرسه. الكلاب المستوردة من الخارج وتعيش في مستوى أفضل بكثير من الناس في الاحياء الشعبية الفقيرة، هناك جندي يقوم بالحراسة. يطل من نافذة كبينته الخشبية ويحمل في يده بندقية. نزلت زهرة من السيارة واندفعت إلى داخل المنزل دون أن تأبه للجندي الذي عقدت الدهشة لسانه، لم يدر هل يتابع المرأة الجريئة أم العربة التي أتت بها ثم انطلقت بعيدا كأنها تهرب من هذا المكان الآثم. دخلت زهرة البهو الكبير ووجدت مراد وزوجته فاطمة وسط قطع الأثاث الفاخر يشربان الشاي في أواني فضية. الجمت المفاجئة مراد عندما رأى زهرة تقف أمامه والدموع تنهمر من عينيها مدرارا، اندفع الرجل وزوجته نحوها في إشفاق وساعداها على الجلوس وهي تنتحب بحرقة.

- لماذا أخذت ابني يا مراد؟ احس مراد بتأنيب الضمير لدى سماعه كلمات زهرة المشحونة بالوجع.

- أنا آسف يا زهرة لم يسعفني الوقت. كيف حضرت إلى هنا؟

- هذه قصة طويلة دعك منها الآن. قالت زهرة ذلك، أخذت تتلفت بحثا عن ولدها سامي، فطن مراد إلى ذلك.
- سامي في المدرسة، أدخلناه مدرسة خاصة حتى ينال التعليم الجيد. ثم التفت إلى زوجته الطيبة وانتهرها كالمعتاد
- هيا أخبري الطباخة تجهز لها طعام أنها تبدو جائعة.
نهضت فاطمة ودخلت إلى داخل القصر وجلس مراد يواسي زهرة ويعتذر لها. أعلن نفير سيارة في الخارج عن وصول سامي وهند. ودلفا إلى البيت. الهبت المفاجئة مشاعر سامي وهو يرى أمه بهيئتها المتواضعة تجلس وسط الثراء الفاحش، اندفع سامي وهند وارتميا في أحضان زهرة التي عبثت بها الأشجان واندفعت دموعها. كان سامي سعيد برؤية أمه.

نظر مراد إلى الساعة واستأذن زهرة منصرفا.

- أريد أن أذهب إلى المستشفى لزيارة أمنا آمنة، تنبهت زهرة أنها في غمرة الأحداث لم تسأل عن حماتها.
- كيف حالها الآن؟
- قليل من الأملاح في المثانة، لا أدري لماذا تصر على البقاء في البلد القديمة وقد نزح عنها كل الناس. تمتمت ملكة في أسى.
- التمسك بالأرض شرف عظيم، تعرفه الأم آمنة. ثم التفت إلى ابنها سامي وهي تمسح على رأسه.
- سأزورها مساء مع سامي. كانت هذه آخر كلمات وبعدها انصرف مراد، وصعدت فاطمة وابنتها هند إلى الطابق الأعلى جلست زهرة مع ابنها يتناولان طعام الغداء، أخذ سامي يتأمل ملابس أمه العادية في امتعاض.
- ما هذه الملابس التي ترتديها يا أماه؟

يبدو أن ابنها أخذ في التحول إلى مسخ بصورة سريعة. ومضت هذه الخاطرة في ذهن زهرة سريعا ثم تلاشت واجابته في اقتضاب.
- منذ متى كانت ملابسي فاخرة. انا مزارعة وليست وزيرة.
شعر سامي بالقلق لزيارة أمه، ظل يحاول اخفاءه بصعوبة، نهض وغسل يديه، وانطلق نحو آلة الأرغن وأخذ يعزف عليها لحن جميل زهرة تنظر إليه في دهشة. التفت إلى أمه.
- اشتراه لي عمي مراد منذ حضوري. انظري كم هي آلة عظيمة وليست كالناي القديم المتهالك في القرية. ظلت زهرة تسمع كلام ابنها وقد أخذ يتضاءل أمام ناظرها، ما دهى هذا الغلام؟ كانت تخاف عليه من مثل هذا. أن يصاب بهذا الانفصام الخطير. ".
- سامي يا ولدي. هل طاب لك المقام هنا؟
نهض سامي من الآلة الموسيقية واتجه نحو النافذة وسرح بخياله بعيدا ثم استدار.
- نعم ولا يا أمي.
- ماذا تعني؟
- لا أدي ماذا أقول. إذا قلت لك لست مرتاحا أكون كذبت وإذا قلت لك مرتاح أكون كذبت أيضا.
- هذا يعني أنك ستعود معي بعد زيارة جدتك، كما تعلم أني في عجلة من أمري.
لا يا أماه لن أرجع. أنا جئت من أجل أهداف محددة أريد أن أرفع مستواكم المعيشي وهذا لن يتحقق إلا بنيل الشهادات العليا. كما فعل عمي مراد.
- يجب أن تعرف أن عمك مراد هذا صنيعة والدك الذي ضحى من أجله وخرج إلى العمل مبكرا وانفق على عمك بعد وفاة جدك طيلة سنوات دراسته حتى نال الدرجات العليا التي تراها الآن.

كان كلام زهرة يوخز سامي كالإبر. فهو غلام صاحب طموحات كبيرة ولكنها للأسف طموحات مريضة. وانبرى سامي قائلا في يأس.
- لن تفهميني إطلاقا يا أماه!
- ماذا تريد أن أفهم. الثراء الذي هبط عليك فجأة جعلك تزدري مظهري. هل تريدني أن أفهم ذلك؟ أني أخشى اليوم الذي تنكرني فيه. يا ابني القاهرة ليست بلدنا.
لم يطق سامي هذا اللوم العنيف واندفع نحو أمه واحتضنها وهو يبكي.
- أنا آسف يا أماه إذا كنت قد آذيت شعورك.
- إذا كنت تحب أمك عد معي، ليتك تعرف كم عانيت للوصول إليك، يا أبني نحن أهل القرى لا نستطيع العيش في مدن بلا نخيل.
- لكن يا أمي أنا أريد مساعدتكم وأريد حل مشاكلكم.
لن تساعد أحد يا أبني غير نفسك. لقد مررت على شباب في سنك يريدون حل مشكلة البلاد كلها. لا تقل هذا يا عزيزي أرجوك عد معي.

لاذ سامي بالصمت الممزوج بالإحباط، نهضت زهرة بعد فراغها من الغداء وحملت الأواني إلى المطبخ رغم اعتراضات الخدم الشديد فهي لم تعتاد أن يخدمها أحد. جلس سامي مرة أخرى على آلة الأرغن وعزف عليها ألحان متنافرة عكست اضطراباته النفسية الشديدة. لقد خلق ظهور أمه المفاجئ على مسرح حياته صراعا داخليا شديدا في دهاليز نفسه البادية في الانشراخ. ماذا يفعل؟ البقاء في المدينة والحياة الرغدة والمستقبل المشرق أم العودة إلى القرية البعيدة المدفونة في الرمال حيث الملل والحياة الخاوية التي لا تلائمه.

الفصل السابع

كان الليل قد خيم على المدينة. المستشفى الخاص يتلامع بأنواره الزاهية. الغرف الفخمة المطلية باللون الأبيض والزهور التي تغطي المكان تجعل المريض لا يعرف "هل مات حقا ودخل الجنة أم لا يزال على قيد الحياة؟ ". وقف سامي وأمه عند فراش الجدة المريضة، رددت المرأة العجوز في صوت واهن.

- كيف حال ابني عدلي والأولاد؟

- الجميع بخير ويقرؤنك السلام. نظرت الجدة نظرة حب عميق إلى سامي.

هل جاءت أمك لتأخذك منا؟

لاذ سامي بالصمت الحزين، نظر إلى ساعته وتناول صندوق الدواء جوار جدته وتناول منه كبسولة ورفع رأس جدته على ساعده وناولتها زهرة كوب الماء، ابتلعت الجدة حبة الدواء بصعوبة واستلقت مرة أخرى. رن جرس بانغام جميلة معلنا انتهاء الزيارة، خرج سامي وأمه إلى خارج الغرفة ومن ثم إلى خارج المستشفى. وصلت السيارة إلى المنزل الذي كان يلفه الهدوء في ساعة متأخرة، تناولت زهرة العشاء مع ابنها ولم تجد مناصا من النوم، التي بدأت تتراءي فيه كوابيس واحلام مزعجة. رأت ابنها يبتعد عنها في صحراء تعصف به الرياح في محيطات لا نهائية من الرمال وهي تناديه وصوتها يذهب أدراج الرياح. وعندما استيقظت من نومها أحست آلام شديدة في نفسها جعلتها تواقة للرحيل بأسرع وقت وقد مضى على فراقها للقرية ردحا من الزمان وكأنها سنين طوال.

وجلست مع مراد في الشرفة المطلة على الشارع الذي تنساب فيه السيارات الفارهة تنهب الطريق نهبا وأمامها مجموعة من الدرجات النارية تعوي مبددة هدوء الصباح عن المدينة التي ما زالت تتثاءب لاستقبال يوم جديد. قطعت زهرة حبل الصمت والإحراج الذي خيم على عم أولادها منذ ظهورها المفاجئ.

- لقد قررت العودة اليوم. وانت تعرف ظروفي جيدا.
كان مراد يخشى هذه اللحظة ويتحاشاها رد في خنوع.
- إذا ستأخذين سامي معك. ارجوك لا تفعلي فقد ملأ علينا هذا البيت بالفرحة وفاطمة تحبه كأبنها تماما. قد خطت مستقبله بيدي. هل تريدي أن تهدمي ذلك في لحظة؟
كان كلام مراد يعبث بمشاعر زهرة ويجعلها في حيرة بين عقلها وقلبها. وغلبت عليها عاطفة الأمومة
وقالت له في بصوت مرتجف:
- أنت وزوجتك يا مراد احمل لكم كل حب وتقدير، وأنا أعلم أنكم بحسن نية تريدوا لنا خيرا.
شرد مراد بفكره وهو يعتصره الألم، وحدث نفسه: لا استطيع أن اتصور هذا القصر عديد الطوابق من غير سامي.
- بصوت متهدج: هل هذا رأيك النهائي؟
فكرت زهرة قليلا وجمعت كل رابطة جأشها لتتخذ القرار الصحيح حتى لا تتجني على ابنها فأجابته:
- هذا شيء يقرره سامي بنفسه.
ما أن سمع مراد ذلك حتى تهللت أساريره. أنه يستطيع إقناع سامي وهو المحامي الضليع، مراد رجل حصيف وذو خيال واسع سيبني لسامي قصور من الأحلام لن يرى مثلها ابدا طيف قريتهم القاتم. المستنقع الذي خرج منه. نهض مراد في تثاقل إلى داخل

المنزل إلى غرفة سامي، وجده يرقد ساهما. يحملق في سقف الحجرة، نهض سامي واستوى جالسا مفسحا مكانا لعمه مراد لكي يجلس جواره.

- ألا تريد الذهاب إلى المدرسة اليوم؟ ظل سامي ذاهلا ولكنه رد بصوة حزين.
- أمي يا عمى مراد!
عز على أن أتركها ترجع وحيدة.
- لا تنزعج سأحجز لها مقعد في طائرة ومن هناك تستطيع أن تصل البلدة في أقل من ساعتين.
هيا انهض وارتدي ملابسك دعني أوصلك إلى المدرسة وأعود لأفرغ من أمر أمك.
- ليس الأمر كذلك يا عمي. لا بد من اقناعها. تعطل تفكيري تماما.
كان سامي يردد ذلك ويعتصر رأسه بين يديه، ثم هب فجأة واتجه نحو خزانة الملابس وأخرج ملابسه المدرسية وشرع يرتديها وفي ذهنه تدور فكرة واحدة، "عندما يعود من المدرسة سيقنع أمه بأن تتركه يبقى وسيودعها في المطار. لم تسع الفرحة مراد عندما رأى سامي قد عدل عن العودة مع أمه. فأردف باسما.

- في العطلة القادمة سنذهب كلنا إلى لندن وستحضر لا خواتك هدايا لم يحلموا بها قط. كان صمت سامي الحزين يخيف مراد، لذا فضل أن يلوذ بالصمت. نزلت هند تنادي أبيها وخرج مراد وسامي إلى البهو، ثم خرج ثلاثتهم إلى الشارع وركبوا السيارة وانطلقت بهم نحو الطريق. كانت زهرة ما زالت تجلس ساهمة في الشرفة عندما شاهدت السيارة تمتطي الطريق وبها طيف ابنها وابنة عمه. "ماذا جرى؟ ذهب سامي إلى المدرسة حتى دون أن يودعها. بماذا اقنعه مراد؟ " شعرت زهرة بأن الأشياء بدأت تتداعى، نهضت في تثاقل

ودخلت إلى حجرتها، حملت صرتها الصغيرة على عجل. وهربت من القصر الذي كان خالي من سكانه إلا من ذلك الجيش الكبير من الخدم والحشم، خرجت إلى قارعة الطريق حتى دون أن تلتفت ورائها إلى الجنة الموعودة التي تركتها واقتربت من الطريق الاسفلتي، بعد جهد جهيد عثرت على سيارة أجرة استقلتها وقد غمرت الدموع عينيها، دموع الحسرة وهي تودع مدينة القاهرة، المدينة التي ضاع فيها ابنها سامي. وصلت محطة القطار وركبت قطار المتجه إلى الصعيد. تحرك بها القطار بعد نصف ساعة وزهرة غارقة في أحزانها وتلعن في سرها المدينة التي ابتلعت العديد من أهل القرية الطيبين. أحمد ابن بشير الجزار ومن قبله ريا بنت المرحوم عبدالقادر. كان للمرحوم عبد القادر سبع بنات جميلات، اكبراهن ريا، غرق عبد القادر في حادثة المركب الشهيرة الذي راح ضحيته العديد من أهل البلدة. غرق عبد القادر وزوجته في الحادث وتركا ريا وشقيقاتها على كف القدر، مرت تلك الأيام الكئيبة على القرية، كانت ريا من أجمل فتيات القرية. جمالها الريفي يبعث الرعب والعذاب في قلوب الرجال والشباب على حد سواء، بنت السبع عشر ربيعا تبخرت أحلامها في مواصلة التعليم، حبها العذري لسعيد ابن الشيخ عبد الباسط لاقى نفس المصير. صبرت قليلا وعندما كبرت اخواتها وأخذت مطالبهم تكبر معهم لم تعد تسعفها النقود التي كان يجود بها عدلي زوج زهرة خلسة دون أن يعلم بها أحد من أهل البلدة حتى لا يجرح شعورها، هذه الإغاثة البسيطة فتحت جسور المحبة والتقدير من ريا له. ثم جاء اليوم الذي اختفت فيه ريا من البلدة دون أن يعرف لها أحد أثرا، صدم اختفاؤها المفاجئ أهل البلدة وكالمعتاد أخذت تدور حولها الأساطير منهم من يدعي أنها غرقت في النيل ومنهم من قال إنها هربت مع رجل، ولاكن مع من؟ سعيد ابن الشيخ عبد الباسط لازال في القرية يواظب على صلواته في المسجد، بعد

مدة ظهرت ريا في رمضان، كانت ترفل في حلة زاهية كأنها أميرة من أميرات ألف ليلة وليلة، بدأت أثار النعمة تغزو بيتهم المتواضع وتحسنت صحة اخواتها كثيرا، بعد أن تكررت زيارتها السنوية إلى البلدة. أصبح الكل يعرف أن ريا تعمل ممرضة في مستشفى خاص في القاهرة. يجود لها النزلاء وذويهم بالهدايا الثمينة لتفانيها في خدمتهم. كان لريا اليد الطولى في تهجير العديد من شباب القرية إلى دول النفط بواسطة علاقاتها الواسعة بعلية القوم في القاهرة، وماذا يعني أهل القرية من هذا الأمر طالما هناك يد قوية أضحت تنتشل ابناءهم من كابوس الفقر المدقع. ومضت الأيام دواليك حتى جاء يوم غريب في رمضان. كانت دائما تأتي في رمضان تصوم شهرها وتؤدي فروضها. هذه المرة كانت أشبه بالشبح، جسدها دب فيه الهزال وشحب وجهها الذي كان يشوبه شعور بالذنب عظيم. وفي الليل اشتدت عليها حدة المرض، فأخذت تهذي وأمرت شقيقاتها أن يحضروا لها عدلي، الرجل الوحيد الجدير بثقتها، أخبرته بكل شيء أنها تعاني من مرض خطير وأنه منذ هروبها من القرية، استقلت القطار إلى القاهرة، هناك تلقفتها قوادة شهيرة وبدأت معها مشوار السقوط، كان لجمال ريا الريفي الدور الفعال في فنون اللعبة وخصصتها للكبار وأصحاب السيارات الفارهة. إن هروبها من القرية بسبب الحاج إبراهيم، الذي اعتدى عليها في مخزنه عندما جاءت تستقرض منه مال. لذلك رفضت أن يتزوجها سعيد أو يعرف سرها. رفضت ريا كل محاولات عدلي أن يأخذها إلى مستشفى في المدينة وفضلت أن تموت وسرها معها. كان لها ما أرادت، فاضت روحها في صباح العيد وكان يوم موتها مهيبا خرج فيه كل أهل القرية، أعلن عدلي أنه سيعتكف أربعين يوما يترحم عليها، فرحت زهرة آنذاك بأن الله تاب على زوجها وترك عادته الرديئة لشرب الخمر. لكن خاب ظنها وفي ليلة ابتلع التمساح فيها القمر، علا صياح أهل البلدة

وأخذوا يضربون الصفائح والدفوف، حضر عدلي مخمورا يترنح ويسب ويسخط بكلماته المشهورة.

- تعسا لأولئك النسوة، بائعات الخمور، أصبحن يغششن بوضع الماء الزائد في، الخمر، غضب الله عليهم! وما فتئ يصب لعناته على القرية، لأنه لا يحب المطففين! ظلت هذه الخواطر والذكريات تنساب على مخيلة زهرة التعسة والقطار ينهب بها الأرض نحو الجنوب، تذكرت زهرة كيف أسدل الستار على هذه المأساة برحيل سعيد الولهان الذي فقد حبيبته ريا وهو لا يعلم سرها، منذ ذلك اليوم أصبح حاله لا يسر أحدا في القرية، يهيم في طرقات القرية زاهلا نحيلا، رحيل ريا الأبدي، ريا التي انطفت كالشمعة، ريا التي أحرقت نفسها لتضيء للآخرين طريقهم، يرحمها الله، يرحم جميع أهل القرى اللذين ضلوا طريقهم في متاهات المدينة الفاجرة، المدينة القاسية، كانت زهرة تتذكر ذلك والقطار يتلوى كالثعبان ويقطع الوهاد إلى الجنوب إلى قريتها الوادعة. مضت السنين وأصبحت رحلة زهرة الفاشلة إلى القاهرة في طي الذكريات.

الفصل الثامن

في ذلك الصباح وأشعة الشمس الذهبية تتسلل بين أوراق شجر النخيل الجافة. أسراب من الطيور المهاجرة تلوح في الأفق بعيد، كانت زهرة تجلس تحت الشجرة التي تساقطت أوراقها ولم تعد ذات قيمة فقدت الظل والإخضرار. ظلت زهرة تحملق في ذهول في مزرعتها التي أدركها الجفاف وكادت تصبح صعيدا زلقا. لاح في الأفق ابنها أشرف وصديقه كمال ابن التاجر إبراهيم وهم يرتديان زي المدرسة الثانوية في البلدة المجاورة. كان حمارها الهزيل يرقد عن كثب يلوك الأعشاب الجافة في امتعاض. جلس أشرف وكمال جوار زهرة ووجهها يقطر بالإحباط، نظرت لهم متسائلة.

- ماذا حدث. الا توجد مدرسة اليوم؟

أجابها أشرف في حنق شديد وهو يمسح العرق الذي كان يتصبب منه.

- لا يوجد خبز اليوم ولم يتمكن العديد من الطلاب الحصول على وجبة الإفطار.

تنهدت زهرة في أسى وأخذت تحملق بعيدا. - إلى متى سيستمر هذا الحال. الجفاف ساد المكان، احترقت المزارع عن بكرة أبيها، انعدم الوقود الذي يحرك ماكينة رفع المياه من النيل. ثم أردفت ملتفته إلى كمال في نبرة عتاب.

- إني لا أرى سببا واحدا يجعل والدك يخزن الوقود ويبيعه في السوق السوداء. أنه الثراء الحرام بعينه.

أومأ كمال موافقا في حياء شديد، فقد كان وهو نفسه غير راضي عن تصرفات والده التي اتسم بالأنانية والجشع، فهو يقوم باحتكار كل شيء من الدقيق إلى البترول.

- أنا آسف جدا لكم جميعا. أنه أبي على كل حال.

ابتسمت زهرة في ود وهي تنظر إلى كمال الذي فاض الدمع من عينيه. انها تعلم أن كمال ولد طيب. حدقت زهرة بعيدا حيث كان يقف شاب نحيف وطويل القامة يقف عند سور المدرسة يكتب بالطلاء على الحائط.

- من ذلك عند سور المدرسة؟
-اظن انه خالد ابن زين.
التفت كمال وأشرف ناحية المدرسة ثم انبرى أشرف قائلا في نبرة اعجاب.
- نعم أنه هو، يعمل مع المناضلين.
اردف كمال في توجس
- إنه مخلص كوالده المرحوم. أني أخشى عليه أن يسمع بنشاطه رجال الأمن في المدينة.
أردفت زهرة في اعتزاز.
- انه كأبيه شجاع.
كان والده رمز للوطنية والإخلاص طيلة حياته القصيرة في قريتنا، زينب أيضا امرأة فاضلة. أخذ أشرف يقلب صفحات كراسته حتى عثر على منشور.

- قام خالد بتوزيع هذا البيان ليلة أمس على طلاب المدرسة. تناول كمال الورقة وأخذ يقرأ لزهرة التي كانت تستمع بشغف بعد أن تعلمت هذا النوع الجديد من الحياة. نهض ثلاثتهم بعد اشتداد الهجير. عبرو المزرعة الجافة وعند مشارف سور المدرسة حيوا خالد الذي استدار إليهم مبتسما. ظلت زهرة تتأمله في اعجاب وطاف بذاكرتها عندما حضر زين وزوجته زينب إلى القرية في ذات ليلة من الليالي. كان

خالد طفل رضيع، منذ أن حلت هذه الأسرة في القرية وحديث أهل القرية عنها لا ينقطع، كان زين يعمل مدير للمدرسة الابتدائية. رجل بمعنى الكلمة، ظل ملاذ القرية في أحلك الظروف. حتى جاء اليوم المشؤوم. ودع زين أهل القرية في طريقه إلى القاهرة، عندما تصاعدت الأزمة السياسية في أوائل الخمسينيات. قبل اندلاع ثورة يوليو. لم يدر زين أنه كان يودع اسرته الصغيرة ويودع القرية الوداع الأخير، استشهد الزين في إحدى المظاهرات قبل ثورة يوليو. أصابه عيار ناري، مات متأثرا بجراحه وسطر للقرية تاريخ مشرق. ومضت السنين وقامت زينب الحزينة بتربية ابنها خالد، تربية وطنية على نهج والده لا يرضى بالظلم. وقد كان.

الفصل التاسع

كانت شمس الظهيرة تصلي الأرض بشواظ من نار. جلس عدلي على مسطبة متهالكة في دكان الحاج إبراهيم. الذي كان يغلق أبواب متجره على عجل، يبدو أنهما ظلا يتحدثان لفترة طويلة. في الموضوع المزمن، الجازولين.

أخذ عدلي يترجاه أن يعطيه له ببرميل حتى لا يفشل المحصول.

- يا حاج إبراهيم. أني أعلم تماما والكل في القرية يعرفون أنك تبيع حصيلة البلدة من الجازولين في السوق السودة. اعطني برميل واحد على الأقل.

نظر الحاج إبراهيم إلى صديقه اللدود في امتعاض، كان يكره صراحة عدلي الجارحة، فأنبرى له قائلا:

- أنت لا تفتئ تتهمني بالباطل، أنا رجل أخاف الله وأنت رجل سكير.
- نعم أنا أتعاطى الخمر، هذا شيء شخصي وأنت تضر أهل البلدة.
- أنت المخمور دائما، ماذا تقول يوم يحشر الناس عندما تسأل فيما انفقت عمرك؟
- إن الله يغفر الذنوب جميعا إلا حقوق الناس.
- سبحان الله هكذا تقول!
- تعسا لك. وماذا ستقول أنت؟

باغت الاستفسار الحاج إبراهيم وبان الامتعاض على وجهه.

- ماذا أقول؟
- نعم. هل ستعترف بأنك تتلاعب بأقوات الناس وتستغلهم؟
- عفا الله عنك أيها السكير.

- يمكنك أن تنكر ذلك أمامي الآن، لكن هناك لن يسعك الإنكار لأن الله يعلم تماما ماذا كنت تصنع.
بلغ الاستياء مداه بالحاج إبراهيم، إنه لا يرضى أن يواجه أحد بأعماله المنكرة ولكنه تقبل ذلك من صديقه لشيء ما في نفسه. ادخل يده في جيبه وأخرج رزمة كبيرة من النقود وهو ينظر إلى عدلي في ود.
- دعك من هذا. أنا لم أدعوك له. أود محادثتك في موضوع عائلي.
نظر عدلي إلى غريمه في توجس.
- ماذا تريد؟
- هدئ من روعك، لماذا أنت حانق على هكذا؟
قلت لك ماذا تريد؟
- هون عليك، أنت تعلم مدى حبي لك، حتى أني احتمل اهاناتك لي دون خلق الله أجمعين.
- تعسا لك. لا بدَّ أنك عازم على أمر جلل.
ابتسم إبراهيم ابتسامة عريضة ومد رزمة النقود إلى صديقه.
- خذ هذه النقود، حتى تتحسن الأحوال. نهض عدلي في غضب وازاح النقود بعيدا.
- لا أريد نقودك القذرة. أريد جازولين.
أعاد الحاج إبراهيم النقود إلى جيب جلبابه الواسع، حاول رسم ابتسامة على شفتيه. فقد كان يبيت أمرا جعله يحتمل كل الاهانات الذي اهانه بها عدلي.

- يا عزيزي. كنت أريدك في موضوع هام، شغل بالي منذ مدة.
رمقه عدلي في ارتياب، بعد أن لاحظ تغيير في نغمة الحوار، وظهور نبرة جديدة.

- إياك أن تكون في مزمع على إدخالي معك في أجهزة الحكومة الخربة. رد الحاج إبراهيم في صبر نافذ.
- ابدا. انه موضوع عائلي. باغت الرد الغريب عدلي، الذي أخذ يحملق في صديقه في ذهول.
- ماذا تعني بموضوع عائلي؟
تنحنح الحاج إبراهيم ورد في خنوع:
- أريد ان تزويج ابنتك شيماء. نظر محمد إلى صديقه كالمشدوه.
- لمن. لابنك كمال؟
- لا ليس لابني. أريد أن أتزوجها لنفسي. وجه عدلي إلى صديقه نظرة احتقار. إذا هذه كانت المناورة، واطلق الساحر تعاويذه.
- اسمع أيها المتعجرف. ابنتي شيماء في سن بنتك ايمان ثم أنك متزوج من امرأتين.
كان رد الحاج إبراهيم على غير ما يتوقع عدلي، في خنوع شديد.
- إذا اصبحت صهري، سأفتح لك مخازني تعب منها ما تشاء الجازولين. الدقيق، السكر، بل سأشتري لك زجاجات الخمر التي تحبها بنفسي. - قلت لك دعك من هذا!
- لماذا أنت حانق على هكذا؟ . شاور ابنتك قد ترضى بذلك والشرع أباح الزواج من أربعة.
كانت هذه آخر كلمات الحاج إبراهيم، قبل أن يستأذن صديقه اللدود اللحاق بصلاة الجمعة في المسجد الذي كان يتعالى منه الأذان. نهض عدلي وهو يفكر في هذه المعادلة الصعبة، لقد عرف هذا اللعين كيف يلعب على أوتار عقله، خاصة أن العرض الأخير كان مغريا، ظل عدلي يقلب الأمر في رأسه " لماذا لا يحاول مع أبنته، قد تكون راضية. هذا الرجل الذي سيكفل لها حياة كريمة، عجز هو نفسه أن يكفلها لأبنائه. هذا العرض سينقذها من الفقر وويلاته، كما أنقذ سامي، الذي تتوارد الأنباء بأنه يصعد في سلم الحياة الاجتماعية

بسرعة. ظلت فقط رسائله تقول ذلك. " إذا كان لا بد من تضحيات فلا بد أن يضحي أحد ما". فليؤجل هذا الأمر إلى المساء. وانطلق في طريقه إلى هوامش القرية. عند الغروب دفع باب منزلهم ودخل في تثاقل. كأنه يحمل العالم على كتفيه، جلس على حافة المسطبة الذي كانت تجلس عليه ابنته شيماء، تحيك قطع الملابس الممزقة. استلقت زهرة على فراشها في الفناء بين ولديها مازن وزينب، كان يبدو عليها الإعياء وقد استسلمت لمداعبات ابنها مازن بشعرها الطويل. نظر عدلي إلى ابنته شيماء في توجس، لا بدَّ من إلقاء قنبلته الآن. التفتت شيماء إلى والدها في قلق. شعرت أن والدها اليوم يتصرف بطريقة غير طبيعية ولا بد أنه يبيت أمرا.

- شيماء أبنتي، أنت أدرى بالشظف الذي نعيشه.
أزاحت شيماء القميص التي تحيكه جانبا ووجهت نظرة متسائلة إلى والدها. لم تخمن بعد ماذا يقف خلف هذه المقدمة،
- ماذا تريد ان تخبرني يا أبي؟
والقى عدلي قنبلته التي نسفتهم جميعا.
- طلب الحاج إبراهيم الزواج منك.
شعرت شيماء كأن هناك خنجر انغرز في صدرها.
- الحاج إبراهيم! لا يا أبي لا أصدق ذلك!
نظر إليها والدها في إشفاق.
- نعم، أنه رجل ثري، سوف تعيشين في نعيم، قلما يجود الزمان بمثله إن فتيات كثيرات يحلمن بهذا.
قال عدلي ذلك ثم وجه نظرة تحدي إلى زهرة التي استوت جالسة تحملق فيهما في ذهول مشوب بالسخط.
- أخبريها أيها التعسة، ماذا يعني الزواج من الحاج إبراهيم.
كانت هذه عادته دائما يصب لعناته على زوجته المسكينة.

- لن ألزمها بزواج إبراهيم قسرا حتى ولو كان له مثل ما أوتي قارون. ثم إن إبراهيم هذا لص قذر!
جاء رد زهرة المتحدي نصلا باردا يشق صدره. انه يقبل أن يتحداه أي شخص إلا زهرة، هذا مالا يقبله أو يرضاه، ثارت ثائرته واستبد به الغضب الشديد.
- أخرسي أيتها البلهاء. الجدران لها آذان. ردت زهرة في تحدي.
- أنا لا أخشاه ولا أخشى أي مخلوق على هذه الأرض إذا ابنتي قالت لا هذا يعني لا.
نهضت شيماء من جوار والدها والدموع تنهمر من عينيها واندست في صدر أمها تنتحب بشدة. نهض والدها يرغي ويزيد وقد عصف به الغضب.
- تعسا لكم جميعا، أنا رجل هذا البيت وإن لي الكلمة العليا سيكون الزواج شاءت أم رفضت.
استدار عدلي منصرفا ليواجه على باب الخارجي ابنه أشرف وصديقه كمال، قادمين من الخارج، تسمر الصديقان في فناء المنزل وقد شعرا ببرودة الجو المكهرب الذي يعم المنزل كما كان عويل شيماء يصم الآذان، نظر أشرف إلى شقيقته في توجس وقف كمال جواره مطرقا في صمت

- ماذا بها يا أماه. لماذا تبكي شقيقتي شيماء.

رفعت شيماء رأسها ونظرت إلى كمال الذي وقف في ارتباك.

- أبوك الحاج إبراهيم يريد أن يتزوجني يا كمال. اكتسى وجه كمال بالغضب الشديد."اللعنة! شيماء التي يحبها منذ الصغر، يريد أن يتزوجها والده، "يا لسخرية الأقدار". استدار كمال منصرفا، تاركا خلفه جو من الوجوم ملبد بالغيوم، جلس أشرف جوار شقيقته وهو

يربت على كتفها أنه يعرف أنها صفقة تجارية جديدة يعد لها الحاج إبراهيم الذي لا تنتهي ألاعيبه. نهضت زهرة وتلفحت ثوبها وخرجت صافقة الباب وراؤها صفقة مدوية معبرة عن استيائها، اندفعت زهرة تشق طرقات القرية المظلمة قاصدة بيت الحاج إبراهيم، ما أن اقتربت من المنزل حتى ترامى إلى أذنيها الشجار العنيف الدائر بين كمال ووالده.

- يا أبي ما تفعله عمل مشين. إن شيماء في عمر أختي إيمان.
- قلت لك مرارا لا تتدخل في شؤوني الخاصة.
- إنك لا تهمك إلا مصالحك فقط قالها كمال (بصوت عالي)
- بتعلي صوتك على أبوك يا كلب. أخرج وأغرب عن وجهي، لا أريد أن أراك ثانية.
- نعم سأرحل. وسيأتي يوم تدفع فيه ثمن كل ذلك.

كانت هذه آخر كلمات كمال واستدار منصرفا. التقى بزهرة في الخارج نظر كمال إليها خلال الدموع الغزيرة التي غطت عينيه. ثم اشاح عنها واندفع في طرقات القرية، دخلت زهرة المنزل لتواجه الحاج إبراهيم الذي كان لا يزال ثائرا يخور كالثور استدار إليها إبراهيم، جاهد نفسه ليبدو أكثر تهذيبا أمامها إنه يعرف زهرة تماما. رفيقة صباه، يحبها بجنون في ذلك الزمن الغابر. أجمل بنات القرية ولكم أزله حبه لها، ظل لا يعرف لماذا اختارت عدلي غير المبالي الفقير، عدلي معشوق النساء في القرية، رجل عنيد وغير آبه، كثيرا ما كانت فتيات القرية يتسللن ليلا إلى شاطئ النهر يراقبنه تحت ضوء القمر، وهو يلقى بنفسه في النيل سابحا، كان الوحيد الذي يستطيع عبور النيل سباحة. يعبر إلى البر الغربي ويقضي لياليه الماجنة ويعود في الفجر ظافرا منتشيا من غزواته النسائية، كم كان يحسده. ولا يدري لماذا تتعلق به الفتيات، بل كان زواجه من زهرة

هي الضربة القاضية له وهو الشاب الثري. جالت هذه الخواطر في عقل إبراهيم المنكدر، حدق في زهرة التي نظرت إليه في احتقار جعلته يشعر بضآلته أمامها.

- ما هذه اللعبة الجديدة التي جادت بها قريحتك المتعفنة؟
نظر إليها الحاج إبراهيم في حب وخنوع
- أي لعبة تعني يا عزيزتي. ارجو أن تقدري موقفي
وجهت إليه زهرة نظرة باردة كالثلج.
- أنت متزوج من امرأتين ألا يكفيك ذلك، أم أن هذا الزمن الرديء يتسع للزواج من ثالثه،
كان الأجدى بك أن تزوجها كمال ابنك.
قفز الحاج إبراهيم كالملسوع عند سماع كلماتها الأخيرة.
- كمال! ذلك العقرب. لقد طردته الآن لم يعد أبني.
ردت زهرة في ازدراء:
- أنت العقرب وليس هو ابتلع إبراهيم إهاناتها بصعوبة وقد اشتعل حبه القديم لها. ملأ الشبق عينيه، اقترب منها يرتجف.
- يا عزيزتي لماذا كل هذا أريد الزواج منها على سنة الله ورسوله.
نظرت إليه في تحدي.
- إبراهيم لا تتحداني. أنت تعرفني جيدًا. نفذ صبر إبراهيم تمامًا وانفجر فيها غاضبًا.

- أنت لا شيء. أصبح الأمر من شأن الرجال وأنت مجرد امرأة.

- امرأة! ستعرف من أنا وتركع أمامي متوسلًا كما كنت تفعل في الماضي.

اشعل هذا الكلام المؤلم فتيل الغضب وانفجر فيها وقد تحول كل حبه القديم لها إلى كراهية عارمة.

- أخرسي، اخرجي، من هنا أيتها اللئيمة.

استدار إلى داخل إحدى الحجرات وصفق الباب خلفه بعنف، لمحت زهرة أوراق على منضدة ودفاتر تركها إبراهيم، أخذتها وكانت تحس بحسها الوطني إن لهذه المستندات أهمية، وسيأتي يوم تشهرها في وجه إبراهيم وهذا اليوم ليس ببعيد وقد أصبح قاب قوسين أو أدنى، أخذتها ودستها في طيات ملابسها وانصرفت في هدوء. تسللت إلى بيتهم وتفقدت أولادها النائمين ثم اتجهت نحو فراش زوجها اللدود كانت تفوح منه رائحة الخمر يغط في نوم عميق، أخذت تتأمله بحب عظيم، إنها تحب زوجها حب لا ينتهي رغم الشراسة التي تتسم بها تصرفاته، كان يختبئ داخله إنسان أصيل والروح المصرية الطيبة. قد لمست ذلك بحسها الأنثوي الذي لا يخيب ابدًا، تزوجته رغم أنف الجميع. سحبت زهرة غطاءه عليه لتقيه برد الأسحار. عادت إلى فراشها واستسلمت للنوم.

أرسل القمر الحزين أشعته الفضية تتسلل بين أوراق أشجار النخيل وتلقي ظلال موحشة على الشاطئ الممتد في الأفق، كان هناك شبحان صغيران لرجل وامرأة، يسيران معًا وقد القت عليهما الظلال الشاحبة معاطفها، لم يكن هذان الشخصان سوى شيماء وكمال، لقد نزل عليهم الخبر البغيض نزول الصاعقة، كاد يخنق الحب الذي ولد بينهما منذ الصغر، تنهد كمال واطلق زفرة حارة، كان يسير مطرقًا إلى الأرض.

- طردني أبي. قررت أن أترك القرية.

نظرت إليه شيماء في توجس.
- لا يا كمال لا ترحل وتتركني وحدي. هل تريد أن يتزوجني أبوك.
- أبدًا. أبدًا عندما عرفت هذا الخبر أظلمت الدنيا في عيني تمنيت أن يكون كابوس مزعج استيقظ لأجده تبخر.
توقفا عند شجرتهما المفضلة. وقد تيبست أغصانها مثل كل شيء في هذا البلد الذي خبث، وجهت شيماء نظرة حب طويلة إلى كمال حافلة بالشجن.
- أنت كل ما عندي في هذه الدنيا سأرحل معك.
باغت هذا الاقتراح كمال وبدأ عليه الإنزعاج. كان يعرف ماذا يعني أن تهرب فتاة عذراء في هذا المجتمع المتخلف، الأساطير التي ستروج وتملأ البلدة، صديقه أشرف. الذي يحبه. ستكون طعنة في الظهر زهرة وعدلي كل هؤلاء " رباه ما هذه المعادلة الرهيبة التي تدور في رأسه الآن، في كلا الحالتين الخاسر الوحيد هو".

- لا يا شيماء. يجب عليك البقاء، ضميري لا يحتمل الاضرار المعنوية التي تحيق بأهلك.
لكن شيماء التي اكتسبت العناد من والديها. اصرت على الرحيل معه مهما كلفها الأمر.
- لم يعد يهمني ماذا يقول الناس. سيتكلمون فترة ثم ينسوني.
- إذا كان هذا رأيك النهائي، دعيني أخبر أشرف على الأقل.
- لا. لا دعه، انهم سيفهمون وضعي جيدًا وينسوني مع مرور الزمن كما نسوا سامي. دعنا نذهب قبل أن يدركنا الفجر.
كانت هذه آخر كلمات شيماء وهي تبتعد مع كمال صوب المرسى حيث كان ينبعث غناء عبد الفتاح المراكبي بصوته شجي. ظلا يسيران بخطى سريعة بعيدًا عن مرمى نظر أشرف الذي حضر يبحث عن شقيقته، عرف أشرف ما سيفعل صديقه واخته. سيهربان.

ويتزوجها كمال في مكان ما في دنيا الله الواسعة، أدرك أن هذا الحل المؤلم هو الحل الصحيح وما كان بالإمكان ابدع مما كان. ظل هذا الصراع الحاد يعتمل في نفس أشرف الطيبة، كانت تتنازعه رواسب المجتمع المتخلف الذي يعيش فيه ونظرته الواعية لمفهوم الزواج، هذه المفاهيم التي غزت رأسه من الكتب التي يمده بها صديقه خالد من مكتبة والده، تغلب عليه الشعور الثاني. راجع وعيناه تذرفان الدمع المر. عاد إلى المستنقع والأيام المملة الرتيبة التي تتوالى مخلفة وراءها خيوط واهنة من الذكريات

الفصل العاشر

كانت العصافير تملأ الجو تغريدًا في ذلك الصباح البهيج في مباني جامعة القاهرة العتيدة. سامي وهند يسيران في أروقة كلية الحقوق والسعادة لا تسعهما انتهاء المشوار الطويل وبرزت مشاريع العمل والزواج أمامهما طريق ممتد في معالم لا نهائية. جلسا في الكافتيريا الهادئة يحتسيان عصير الليمون وهم يتجاذبان أطراف الحديث في المواضيع التي تهم كل خطيبين. حدقت هند في قطعة الثلج التي كانت تدور في كوبها مع اهتزاز يدها المستمر

- انتهت أيام الدراسة السعيدة يا سامي.

وجه إليها سامي نظرة حب عميقة، إنها ابنة عمه وزواجه منها أضحى من البديهيات التي لا تقبل الجدل. منذ أن انتشله عمه مراد من قريتهم الكئيبة لم يعد مرة أخرى ولم تجدي توسلات أمه آنذاك بالعودة معها. كان يرسل خطابات من حين إلى آخر، سامي إنسان طموح. لكن طموحه من ذلك النوع الخطر الذي يجعله يتخلى عن كل شيء يربطه بالماضي. إن قريته كانت بمثابة الشوكة في أحلامه الوردية التي ظل يخطط لها وينسق لها سنين عديدة. كثيرًا ما كانت هند تناوشه بتذكيره لأهله وأسرته في القرية فيبين الامتعاض على وجهه ويعاتبها على ذلك.

- نعم مرت الأيام كالخيال والأحلام. هند التي يعرفها جيدًا تطرقت إلى الموضوع الذي يكره سماعه.
- هل ستعود إلى أهلك؟
نظر إليها في عتاب.

- لم يعد لي أهل غيركم. لك أن تتصوري إذا لم يأخذني عمي مراد ماذا كنت أفعل الآن؟

ضحكت هند وهي تتخيل سامي يعمل في المزرعة أو يدفع أمامه قطيع من الأغنام إلى المراعي جوار البلدة.

- ولم تأتي أمك ثانية منذ أن رفضت الرجوع معها.

- أرجوك يا هند، دعك من هذا. أنا سامي صهر المستشار مراد، لا داعي تذكريني بذكريات قديمة ولت ولن تعود.

امضى الساعات يتحدثان في مشاريع زواجهما المرتقب، سيفتح مكتب محاماة مستغلًا نفوذ عمه الجبار حتى يصبح محامي كبير يشار له بالبنان ثم ينجبا أطفال أصحاء متعافين يقومان بتربيتهم بالطريقة الحديثة وهو في سبيل طموحاته المريضة ألقى جانبًا كل ثقافته الاشتراكية التي تلقاها في سنين طفولته الأولى على يد المرحوم زين، عندما كان زين يقوم بتعليم أهل البلدة من جميع الفئات مبادئ الأفكار الاشتراكية، ما زال سامي يتذكر كان لكلامه مفعول السحر في نفوس أهل البلدة اللذين يجلونه ويكبرونه. أفزع سامي خاطر آخر. تذكره عندما عاد أحمد ابن بشير الجزار بعد أن تخرج من جامعة القاهرة، جاء وهو يرتدي ملابس التخرج الغريبة التي جعلته أشبه بالخفاش، كانت مثار ضحك أهل القرية والأدهى من ذلك أن كلاب أبيه الجزار لم تعرفه فأخذت تطارده وتعوي خلفه وهو يجري ويتعثر وينظر إلى الجميع في ازدراء، تعثر وسقط على التراب وعضه أحد الكلاب جعله يتلقى علاج السعار المؤلم في مستشفى المدينة، ومنذ تلك الحادثة لم يعد ابدًا إلى البلدة. وأصبحت تلك الحادثة يتداولها أهل البلدة على كالأساطير. سامي لا يريد أن يلقي هذا المصير البشع.

فضل أن يسدل الستار على الماضي الذي راح وانطوى. لا بد أنهم في القرية قد نسوا سامي وبدأوا يتداولون أسطورة جديدة.

هروب شيماء مع كمال كانت الأسطورة الجديدة التي لاكتها السنة أهل القرية، كان أكثر الناس تأزمًا عدلي " ما فتئ أطفال القرية يطاردونه عند عودته من الخمارة التي تقع على هوامش البلدة، يتعلقون بملابسه ويقذفونه بالحجارة وهو يترنح ويصيحون خلفه" أين ذهبت ابنتك يا سكير؟ . لم يكن ينقذه منهم إلا زينب التي كانت تطارد الأولاد وتبعدهم وتأخذ بيده وتقون بتوصيله إلى البيت وتستمر في الدفاع عنه أمام زهرة التي تصب كل لعناتها عليه وتنعيه بأنه السبب في هروب شيماء. أما أشرف المسكين فقد آثر الصمت الرهيب الذي يبعث الرعب في قلب أمه زهرة، كانت تحس بأن أشرف يخبئ أمر ما. سر لا يريد إطلاعها عليه، في ذات مرة استيقظت زهرة من نومها مذعورة تبكي نهض أشرف وجلس جوارها، أخبرته أنها رأت في الحلم أن شيماء ماتت، طيب لها خاطرها وأخبرها بأن شيماء بخير وهذا الأحلام المزعجة ناجمة من الهواجس التي تنتابها، لم يشأ أن يخبرها بهروب شيماء مع كمال وهي تظن أنها غرقت في النيل. كما أنه لم يشأ أن يخبرها برسالة كمال التي وصلته على المدرسة في المدينة المجاورة. الرسالة كانت حافلة بالاعتذار، عرف شريف أنهما تزوجا. أخفى شريف كل ذلك عن والدته.

كأن المصائب تتوالى تباعًا، انفتح الباب الخارجي فجأة في تلك الليلة بشدة ودخل عدلي يترنح منهوك القوي وقد غطته الدماء وكانت ملابسه ممزقة، نظر إليهما شذرًا ثم اندفع نحو فراشه وانكفأ عليه وأخذ يئن. نظرت زهرة إلى زوجها في هلع واستوت جالسة واندفعت نحوه مع ابنها أشرف.

- رباه! من الذي فعل بك هذا؟

كان يهذى ولا يكاد يعي ما يقول، ركع أشرف عند رأس والده وأخذ ينظر إليه في اشفاق، أحضرت زهرة ماء وقطعة قماش أخذت تمسح بها الجروح العميقة التي كانت تغطي جسده. رفع عوني عينيه المخمورتين المحمرتين إلى وجه ابنه أشرف ثم مد يده الدامية وريت بأصابعه المرتعشة على شعر أبنه وردد في أنين خافت.

- بارك الله فيك يا ولدي. تخلى عني الجميع وبقيت أنت يا أشرف، لم أغضب عليك قط. اني راضي عنك تمام الرضا.
ملأت الدموع عينا أشرف ومد يده يربت على يد والده المضرجة بالدماء
- من فعل بك هذا يا أبي؟
رد والده في إعياء شديد
- رجال الأمن الذين حضروا من المدينة. القصة طويلة يا أبني وشرع يسرد القصة الغريبة. عندما كان عائدًا من الخمارة سمع صراخ زينب تقول أن رجال الأمن أخذوا ابنها خالد وعندما رأت عدلي أشارت له نحو سيارة الشرطة حيث ألقوا بأبنها بين أرجلهم. اندفع عدلي نحو السيارة يسب وهو ويلعنهم قفز اثنان من السيارة وأوسعوه ضربًا بالجنازير والهراوات والقوه على السلك الشائك المحيط بالمزارع، ظل عدلي يسرد القصة وأشرف يستمع إليه كالمشدوه.

- أخذ رجال الأمن خالد،
ما زال منظر زينب وهي تعدو خلف السيارة عالق في ذهني حتى الآن.
- خالد! إلى أين أخذوه يا ترى؟
-لا أدري يا ولدي تعسًا لهم. دعني أنام في الصباح سأخبرك بكل شيء فإني جد مرهق الآن وأشعر بآلام شديدة.

نهض أشرف من عند والده وقد استغرقته القصة تمامًا حتى إنه لم يشعر بوالدته التي نهضت من جوار زوجها المثخن بالجراح واندفعت خارجة تبحث عن زينب. ظل أشرف ساهرًا حتى لحظات السحر الأولى. كان هذيان والده الجريح يطن في أذنه كوخز الإبر " إنها قادمة. نورا! جاءت لتأخذني، اني أراها بضفائرها الطويلة وجسدها الناحل ووجهها الملائكي كم انتظرتك طويلًا. وداعًا يا ابنائي. سامحوني. إن الحياة أشبه بالقطار وها أنا قد وصلت محطتي الأخيرة. ". أخذت أشرف غفوة، رأى فيها والده يسير بملابس بيضاء مع جمع من أهل البلدة اللذين غرقوا في حادث المركب الشهير، كانت معهم ايضًا ريا ترفل في أثواب كأميرات ألف ليلة وليلة، يتقدمهم ابن ستوته ناعي القرية يمتطي حماره الأسود اللون. كان الموكب يشق طريق محفوف بالورد والريحان وهم يرددون " الحمد لله الذي أورثنا الجنة". استيقظ اشرف فجأة على عويل نساء يصم الآذان، جاءت النهاية التي لم يكن يتوقعها، بل كان يرفضها تمامًا. مات عدلي متأثرًا بجراحه، يبدو أن الجراح كانت أكثر عمقًا مما يتصور، ظل يدور في ذهنه المشوش سؤال واحد "أحقًا مات أبي؟ ". كانت زهرة تجلس عن كثب تولول وقد تجمع حولها لفيف من نساء القرية الثاكلات، انزوى مازن ورباب في أقصى فناء المنزل يحملقان في ذهول في أفواج المعزين اللذين امتلأ بهم فناء المنزل. خرج الشيخ صالح من غرفة الميت بعد أن قام بغسله وأمر الرجال أن يحملوا الجثمان إلى المقابر إلى قبته البيضاء التي تقف شامخة عن أطراف البلدة. الشيخ صالح، لا أحد يعلم من أين اتى! ولكنه ظهر يومًا في البلدة. عدة أساطير اكتنفت ظهور المفاجئ في القرية. الرجل الغامض الطويل القامة الذي ينبعث من عينيه ضوء، شعره مجدول كالحبال ويسترسل على ظهره، التفت حول عنقه سبحة ذات ألف حبة، تتلوى كالثعابين في أثناء سيره المتوثب في طرقات البلدة.

قالت: جدة أشرف لأمه. أن ابن ستوته شاهده يهبط من السماء عند شجرة الدوم في طرف المقابر، كان ذلك في أثناء تجواله ليلًا هناك، وشد ما أفزعه ذلك الضوء الذي ينبعث من عينيه، كما روت جدة أشرف أن الرجل شيد ضريحه عند طرف المقابر من الطين وزينه بجريد النخل. كان نزول هذا الرجل بركة على أهل البلدة، جاء في أيام رجال الحكومة أصحاب البدلات العسكرية المزينة بنياشين والأنواط الممتلئين حماسًا. حصلت البلدة على معدية حديثه تقلهم إلى البر الغربي وحصدت القرية محصولًا وفيرًا بفضل الطلمبات الحديثة. كان يقصده الرجال والنساء عند الكرب، يأتيه الرجل ملدوغًا من حية أو عقرب يمسح الرجل على مكان اللسعة ويتلو آيات من الذكر الحكيم فيشفى الرجل. تأتيه المرأة العقيم، يضع يده على رأسها ويذكر اسم الله، والله يفعل ما يشاء وتلد المرأة مولودًا ذكرًا أو أنثى، عندما تنتهي أيام النفاس تأتي المرأة بمولودها لينال بركة الشيخ صالح. وتمتد كراماته في علاج العمى والشلل، كان شيخ صالح من أولياء الله الصالحين. لا أحد يستطيع تقدير عمره الذي قد يمتد ألف عام، قالت زهرة أن الحاجة آمنة الأم الكبيرة عندما رأت الشيخ صالح في البلدة أصابها فزع شديد، قالت رأته في منامها في الآيام الغابرة عندما كانت حامل بأبنها الأول عوني، أخبرها بأن تسمي مولودها عوني وأن هذا المولود سيرحل عندما يكبر ويقيم في ديار أخرى وسيبارك الله فيه وفي ذريته. كما عرف أشرف من والدته أن الشيخ صالح هو الذي اسماه أشرف. كثيرًا ما يأتي الشيخ صالح للغداء معهم، الأولاد يفرحون لزيارته، يتراقصون حوله، يعبثون بأصابعهم الصغيرة في شعره المجدول كالحبال أو يتحسسون حبات المسبحة الطويلة وهو يبتسم في ود ناثرًا ذلك الضوء الذي ينبعث من عينيه في أرجاء المنزل.

طافت كل هذه الذكريات الحافلة بالشجن في مخيلة أشرف المكلوم وهو يرى الشيخ صالح يخرج من الباب إلى المقابر وقد انطفأ ذلك الضوء الغامض من عينيه. في مقابر البلدة تمت الصلاة على الجثمان، أم المصلين الشيخ صالح. ثم أمر بدفن الرجل داخل قبته الجميلة المطلية بالجير الأبيض. بعد انتهاء الدفن، جلس أشرف عند قبر والده يبكي بكاءًا حارًا، نعى فيه أشياء كثيرة، ماتت أشياء كثيرة داخله بموت ابيه الذي كان يحبه حبًا شديدًا نعى في والده بؤس الحال والتردي الذي اطبق عليهم من كل مكان بكى فيه مأساة زينب أم خالد التي قبعت جواره عند شاهد القبر. هرع عدد من رجال البلدة إلى أشرف وزينب ليأخذوهم معهم، نهض أشرف وتراجع يترنح وتشبثت زينب بشاهد القبر وتركها القوم داخل القبة تنوح وتلعن هذا الزمن الرديء الذي اخذ منها شبابها بموت زوجها زين واخذ منها عقلها بغياب ابنها خالد ...أخر شمعة تضيء بها دروب عمرها، عند طرف القرية التفت أشرف إلى القبة البيضاء التي تتلامع مع أشعة الشمس وودع والده الوداع الأخير بنظره تقطر أسى وردد في نفسه المكلومة "آه مسكين عدلي بنى قبره بنفسه"، طافت الذكريات مرة أخرى بعقل أشرف المشوش إلى ذكرى يوم اغبر حضر أحد ضيوف الحاج إبراهيم من المدينة، كان من رجال الدين السلفيين، خطب بعد صلاة المغرب، اخذ هذا رجل يخطب في الناس ويندد بالشرك الذي حاق بالبلدة، الشرك الذي يمثله ضريح الشيخ صالح الذي يقف في خجل عند طرف المقابر، استعان الرجل بكل آيات الويل والثبور وعظائم الأمور في بث الرعب في قلوب أهل البلدة البيضاء، اخذ يصرخ بكل ما أوتي من قوة حتى دب الذعر في قلوب بعض ضعاف النفوس وخرجوا بعد الخطبة وحملوا معهم المعاول والفؤوس وتبعهم عدد غير قليل من الأطفال اللذين لم يبلغوا الحلم بعد.توجهوا نحو الضريح. هناك وجدوه مستلقيا على الأرض شاخصًا ببصرة إلى

السماء، وذلك الضوء المنبعث من عينية يشق الفضاء ويمتد إلى مواقع النجوم، تراجع القوم وقد أوجسوا خيفة لكنهم تماسكوا مرة أخرى إذا كان لازال صدى الخطبة المخيفة لرجل المدينة السلفي ذو الجلباب القصير يتردد في نفوسهم، اندفعوا كالسيل الجارف وانهالوا على الضريح تكسيرًا وتحطيمًا حتى ساووه بالأرض تمامًا. ظل الشيخ صالح راقدًا بلا حراك شاخصًا في تأمله الغريب في السماء كأنه لا يسمع ضرب المعاول وهمهمة الرجال والأطفال المذعورين، فاض الدمع من عينية وانطفا الضوء. انسحب الرجال بمعاولهم وأطفالهم دون أن يعيروا أدنى التفات إلى الرجل الراقد عن كثب، ولم تنتهي تلك الليلة عند ذلك، مر عدلي مروره المسائي على صديقه الشيخ صالح، بهت عدلي عندما لم يجد الضريح قائما، خيل له انه لازال به قليل من السكر ولكنه حدق بكل ما أوتى من قوة. فعلًا لا يوجد الضريح، لقد اختفى ذلك المعلم الذي يشكل بوصلة لعدلي في رحله عودته إلى البلدة ... لمح عدلي الجسد المسجى جوار الحطام، اندفع نحوه متوجسًا قبع جوار الرجل. وجده يتنفس وردد في نفسه "الحمد لله لا يزال على قيد الحياة "

- ياشيخ صالح من فعل هذا؟

- أراذل القوم والأطفال فعلوها!

- تعسًا لهم الملاعين. لا تبتئس يا عزيزي غدًا نبني لك قبة أكبر وارحب ونطليها بالجير الأبيض الذي يجعلها تتلامع مع ضوء الشمس والقمر ويراها القاصي والداني.

- بارك الله فيك يا عدلي.

ساعد عدلي صديقه على النهوض وقاده وهو يترنح إلى منزلهم. هناك حكى لأولاده كل شيء عن الفعلة المنكرة التي قام بها ضعاف النفوس في البلدة وفي الصباح حمل عدلي أدوات البناء واخذ

معه ابنيه أشرف وسامي وأخذ يسير في طرقات القرية وينظر إلى أهلها في احتقار وتحدي، استغرق بناء القبة الجديدة ستة أيام وفي اليوم السابع تم طليها بالجير وزينها أشرف بآيات قرآنية وعاد الشيخ صالح إلى ضريحه الجديد سعيدًا ووقفت القبة مرة أخرى شامخة متحدية أهل القرية ينظرون إليها في ارتباك بعد ان انحسرت أخر جرعة من الهوس شبعهم به رجل المدنية السلفي وأوصى عوني ولديه بأن لا تغفل لهم عينًا عن القبة مرة أخرى. عاد الشيخ صالح يمارس تطبيبه لأهل البلدة وعادت المياه إلى مجاريها. كل هذه الذكريات ناء بها ذهن أشرف المكلوم على فقد أبيه حتى وصل مع المعزيين إلى المنزل والكل يدعو له بالصبر والسلوان وان لله وأنا إليه راجعون.

مضت الأيام ثقيلة وترك غياب عدلي فراغًا موحشا في المنزل الكئيب الذي خيم عليه الصمت الحزين وقد امتدت أطراف المأساة إلى مازن ورباب اللذان كانا يملأن، البيت عبثًا وضجيجًا، جلسا منزويين في ركن بعيد، جلس أشرف أمام أمه التي كانت تعد له حقيبة السفر. لقد طفح الكيل ألان وقررت زهرة أن تبدأ معركتها مع الطغيان أخرجت المستندات التي آخذتها خلسة من منزل الحاج إبراهيم دستها في الحقيبة، أخبرت ابنها بعنوان عصام في مصنع الأسمنت في اسيوط. كان أشرف في طريقه إلى القاهرة ليخبر سامي وعمه بوفاة عدلي وكانت زهرة قد قطعت الأمل في عودة ابنها الضال سامي.

في ذلك الغروب الحزين وقفت زهرة عند شاطئ النيل تودع ابنها أشرف الذي كبر ألف عام، اندفع أشرف إلى المعدية لنقله إلى البر الغربي، أخذ أشرف يلوح لأمه وهي تلوح له حتى غابت المعدية في الظلام الذي يلف المكان ثم استدارت ممتطية حمارها الهزيل تحت أشجار النخيل المتيبسة. من خلف الأشجار لمحت زينب الذي ذهب

عقلها تجري بين الأشجار تنوح وتندب ابنها الغائب، كان صوتها موحشًا يمزق السكون، أصبح نواح زينب سيمفونية اعتاد سماعها أهل البلدة فظلوا يتحسرون لحالها وعاجزين عن مد يد العون لها، حتى الحاج إبراهيم رغم نفوذه الكبير في الحكومة لم يمد لها يد العون وهي تنوح عند بابه كل يوم في طريقها إلى المقابر حيث اعتادت النوم جوار قبر عدلي. اضحى الموتى أجدى من الأحياء وهي تفضل الجلوس بجوار مقبرة عدلي التي تكن له كل الاحترام والتبجيل ولم تنسى موقفه النبيل وانه فقد حياته من أجلها. ظلت زهرة تحمل لها الطعام في المقابر وزينب لم تكن يومًا امرأة عادية، هي وأسرتها الصغيرة تجسد تاريخ مصر الذي لم يكتب، الجوع والإرهاب والموت هو الثالوث الذين طحنت رحاه هذا الشعب الأصيل.

الفصل الحادي عشر

في ذلك الصباح المشرق كان الدخان الأبيض يتصاعد من مداخن مصنع أسمنت اسيوط وأشرف يسير في الطريق الفرعي توقف أمام باب المنزل المنشود ضغط على الجرس الذي كانت تعلوه لافتة أنيقة مكتوب فيها اسم صاحب المنزل مهندس عصام عبد الجواد. سمع أشرف وقع أقدام صغيرة خلف الباب وانفتح الباب، أطلت منه طفلة وابتسمت له ابتسامة حلوة ودعته للدخول، دخل أشرف المنزل الأنيق وواجه عصام أمامه، عصام الذي طالما حدثته عنه أمه، كانت تقف عن كثب حنان زوجته وهذه الطفلة التي فتحت الباب لا بدَّ أنها زهرة الصغيرة ابنتهما، فقد وعدوا زهرة إذا انجبوا بنت يسموها بأسمها، دعا عصام أشرف للجلوس بعد أن تعرف عليه، كان الحديث ذو شجون وحافل بالذكريات، دار الحديث عن الأوضاع المتردية في البلاد، التي وصلت تحت الصفر. أعطى أشرف عصام المستندات التي جعلت وجه عصام يتهلل فرحًا. هذا ما كان ينقصهم، وثائق لإدانة رموز الفساد في النظام الآيل إلى السقوط. تتطرق الحديث عن الأحرار.

- ما هي أخبار الأحرار في المنيا؟

تنهد عصام في آسى وسرح بخياله بعيدًا، ظل أشرف يحملق في وجهه في توجس.

- كانوا أربعة سالم وعمر امجد وماهر.

- نعم حدثتني عنهم أمي كثيرًا حتى كدت أراهم بخيالي. غطت الدموع عيني عصام

ولازال في شروده.

- في الأيام العصيبة الأخيرة اعتقل رجال الأمن سالم وعمر في في أثناء توزيعهم للمنشورات في المدينة وتم نقلهم إلى السجن، مات سالم في السجن لم يتحمل صدره الضعيف رطوبة السجن وليالي يناير الباردة، كان يعاني من داء الربو اللعين. تم إطلاق سراح عمر بعد اختلال قواه العقلية. ستجده الآن في المنيا يقيم مع والدته. ترك أمجد ثروة والده وأنضم للحركة الشعبية. أما ماهر فقد آثر الانزواء في قريتهم النائية في غرب مصر معلمًا للصبية. هذا كان حال مجموعة الأشباح يا أشرف.

كان شريف يستمع إلى هذه الإخبار المؤسفة فاغرًا فاه في دهشة، لم يصدق ان كل هذا حدث لأصدقاء أمه وتمتم في أسى:
- يبدو فعلًا ان الحديث ذو شجون.
- لا تخبر زهرة عنهم حتى لا تفجعها فيم، كانت تحبهم كثيرًا يا أشرف.
- نعم سوف لن اخبرها.
- أما إذا أردت عنوان عمر تناول عصام ورقة من الدفتر وجلس على إحدى المناضد وسطر عليها العنوان وناوله إلى أشرف، تناول أشرف الورقة ودسها في جيب سترته. حضر الغداء اخذ أشرف يتناول الطعام في صمت فقد استغرقته المأساة تمامًا كثيرًا ما كانت أمة تخبره عنهم في كل المناسبات حتى أصبح عدد كبير من أهل البلدة يعرفهم. يعرفون هؤلاء الجنود المجهولين اللذين أرادوا ان يصنعوا مصر جديدة.

في صباح اليوم التالي استأذن أشرف الأسرة الصغيرة في السفر، في محطة القطار اخبره عصام ان يبلغ زهرة تحياته عند عودته ويخبرها بأن المرحومة أم عصام كانت تدعو لها دائمًا بالخير حتى انتقلت إلى الرفيق الأعلى قبل عامين أيضًا كما حذره عصام من التعامل مع الغرباء فقد بلغ السيل الزبا. تحرك القطار من محطة اسيوط يئن ويتوجع وقد اكتظ بالمسافرين كالمعتاد توالت المحطات تباعًا حتى وصل القطار مدينة المنيا ظهرًا، نزل أشرف، استقل عربة أجرة إلى العنوان، كانت شوارع المدينة مليئة بالمارة المذعورين ودوريات الشرطة في كل مكان أضحى الحال ينحدر بسرعة شديدة أو شك الطوفان ان يثور وتوقفت السيارة ونزل أشرف قرع الباب برفق لحظات وفتحت الباب أم عمر ظلت تنظر إليه في توجس، في ذلك الزمن لآياتي الغرباء بخير ولكنه عندما عرف نفسه لها رحبت به ترحيب حار بالزائر الحبيب، دخل أشرف إلى غرفة الضيوف الضخمة، دخلت أم عمر إلى غرفة داخليه ثم عادت تقود ابنها زائغ النظرات، كث اللحية، جلس عمر أمام أشرف وحاول الابتسام لكنه عجز عن ذلك واخذ يحملق في أشرف بعينين شاهدتا الكثير من الأهوال، أحدها احتضار رفيق عمره سالم بين يديه قال عمر في صوت واهن.

- أنت ابن ألام العظيمة زهرة. انت سامي.
- أنا أشرف شقيق سامي الأصغر.
- كيف هي فقط انقطعت أخبارها عنا؟
- انها بخير واوصتني ان ابلغكم السلام.
- لم يعد هناك أحد تبلغه السلام يا أشرف

تهدج صوته وبدأت المرارة. تجتاح كيانه فخنقته العبارات وانهار باكيًا في نشيج مكتوم نهض أشرف وجلس جواره مربتا على كتفه ومواسيًا.

- أتحلى بالصبر يا أخي. إنها سنة الحياة.

- ونعمة بالله ولكن ذهبت جهودنا أدراج الرياح. الكابوس لازال جاثمًا على البلاد، مات سالم بين يدي بعد أن صب علينا رجال الأمن الماء البارد. كان يتشهد ويردد ان الثورة باقية، الحرية شمس لا تغيب. ولكنها غابت.

- هذا طريق حافل بالتضحيات وانتم مصابيح الطريق، انطفأ سالم وأنت لازلت تضيء.
- أشكرك يا أشرف. ان زيارتك لها ابلغ الأثر في نفسي.
- رحم الله سالم.
- فليرحمنا الله جميعًا.
- سأزورك يا عمر في رحله العودة.
- على الرحب والسعة
- تذكر يا صديقي ان توقد شمعه خير من ان تلعن الظلام. أتمنى عندما أعود أجدك انخرطت في صفوف المناضلين الشرفاء مرة أخرى.
- أعدك بذلك فقد أحزنني فقد أصدقائي جملةً.
- الأيام كفيلة بأن تزيل الأشجان كما يزيل الصابون الأوساخ عن الثوب الأبيض.
قضى أشرف يومًا حافلًا مع عمر ووالدته التي أسعدتها زيارة هذا الشاب الغريب الذي بعث الحياة في ابنها.

في الصباح نهض عمر واغتسل. أزال شعثه وتطيب وارتدى ملابس نظيفة وذهب مع أشرف إلى محطة القطار. ركب أشرف القطار مرة أخرى وتحرك به يطوي الأرض طيًا إلى القاهرة المدينة التي تشبه الطاحونة. كان إيقاع الزمن الراكد كبندول ساعة حائط قديمة جعله يشعر بالانقباض، كان الجو مكهرب ومشحون بالتوتر معظم المرافق متوقفة المظاهرات تعم الشوارع والإطارات المحترقة تغطي الشوارع المقفرة، لاحظ أشرف كل هذا من نافذة السيارة التي استقلها إلى الاحياء المنشود إلى بيت عمة الضخم الذي لاح عن بعد كانت الأنوار تتلألأ وسيارات عديدة تغطي الشارع يبدو ان هناك مناسبة عظيمة لا يعرفها أشرف، وبمجرد ان نزل أشرف من سيارة الأجرة التي لفظته واقترب من البوابة دفعه جندي بغلظة. كان ذلك فعلا زواج شقيقة سامي من هند، وسامي كالفراشة ينتقل بين المدعوين، لمح شقيقه أشرف عند الباب الخارجي،

اتجه نحوه وحياه ودعاه بالدخول إلا ان أشرف اعتذر واثر البقاء في الخارج.

- أبي توفي منذ أسبوع.

نزل الخبر على سامي كالصاعقة وطفرت الدموع من عينيه وخيم عليه حزن عميق ثم نظر إلى أشرف وقال:

- سأحضر لاحقًا ان شاء الله

وودع اخوه عائدًا يستقبل المدعوين. ابتعد أشرف من ذلك الجو الصاخب وهو يلعن كل شيء في نفسه. أدهشته المفارقات التي تعج بها هذه البلاد العجيبة يموت الملايين جوعًا والكبار يتناولون الأطعمة الفاخرة غير مبالين لما يحدث في الأصقاع النائية، هؤلاء هم البرجوازيون كما كان ينعتهم الأستاذ زين وهذه هي أخلاقهم سحقا لهم جميعًا. سامي شقيقه الذي تحول إلى مسخ مشوه يرتدي الملابس

الغربية الفاخرة التي يوازي ثمنها سعر محراث يكفي لحرث قريتهم كلها. دمعت عينا أشرف وظل سائر في الطريق الأسفلتي المظلم عندما تذكر كلام والده الأخير "هرب الجميع وبقيت أنت معي يا شريف ". تذكر الخلافات التي كانت بين أبويه كان يصلح بينهما رغم ان كل منهم عنيد، ظل يسترضيهما معًا حتى ولو على حساب نفسه " لايهم لقد مات والده وهو عنه راض وهذا اقصى بما يكسبه إنسان في هذه الدنيا الفانية،

رضا الله ورضا الوالدين".

الفصل الثانـي عشر

أشرقت شمس ذلك اليوم المشهود. تدافعت أسراب الحمام في الفضاء. كان يومًا تاريخيًا خرجت فيه الشمس وهي تبتسم للأرض. هب الشعب بكل فئاته ودق أخر مسمار في نعش النظام. خرجت جموع المواطنين في الشوارع فرحة ترقص في الشوارع وهي وتهتف ان الثورة حرية، والحرية شمس لا تغيب. . أخرج الشعب جميع أبنائه المعتقلين من سنين عده وهم يرددون على الباغي تدور الدوائر، دارت الدائرة على رموز واركان النظام البائد فكان من بينهم مراد عم سامي وبدأت معاناه سامي مع هند التي ظلت تعيره بأنه وقف عاجزًا أمام مساعدة والدها وانه لم يمد له يد العون وكأنما نست كل ما درسته في القانون في تلك اللحظة لم تفلح توسلات امها الطيبة فاطمة في أن تردها إلى صوابها "إذا مراد مذنب سينال جزاءه العادل وإذا كان بَريء فالديمقراطية كفيلة بأطلاق سراحه" لكن هند التي أصبحت تمقت سامي كل المقت استمرت في غيها أخذت تعيره بأصله الفقير وبفضلها عليه وفي جلسة النطاق بالحكم على والدها بعشر سنوات سجن. كانت القشة التي قصمت ظهر البعير، لم يعد سامي يتحمل اهاناتها المتلاحقة صفعها وخرج من المحكمة، زالت الغشاوة عن عينيه، استيقظ ليرى حطام الفردوس الزائف الذي كان يعيشه. خيل له انه كان نائما ويعيش في حلم طويل ممتع ثم أستيقظ ليجده تغير. أصبح الآن يحتقر هند واباها ويحتقر نفسه واليوم الذي دخل فيه هذا القصر ويتأسف على اليوم الذي رفض فيه العودة مع أمه الطيبة زهرة.

ركب سامي سيارته وانطلق بها في الشارع لا يلوي على شيء عادت فاطمة إلى المنزل ووجدت ابنتها تبكي، كانت فاطمة مثل زوجة

فرعون في هذا القصر التعس ذاقت الأمرين من زوجها الأناني وابنتها المتعجرفة، ولولا وجود سامي لذهب عقلها منذ أمد بعيد. هاهي الآن تراه يطير من يدها وزوجها سيقضي سنواته في السجن وبقيت وابنتها في القصر المصادر من الحكومة الجديدة يضربان أخماس بأسداس.

لبست القرية حلة زاهية في تلك الليلة. لقد عادت الديمقراطية للبلاد ونفضت الغبار القديم. كانت الشعارات الجميلة المتباينة تزين طرقات البلدة ومكبرات الصوت تعلن عن العديد من المؤتمرات التأسيسية لجهات عديدة تمتد من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار. كان أشرف يقف على منصة "الحزب الذي ينتمي إليه والشعارات التي تدعو لمصر الجديدة تغطي المكان، صور مرشح الحزب عصام عبد الجواد تملأ الساحة وتزين المنصة.

- انتخبوا المهندس عصام عبد الجواد من أجل حقوقكم الضائعة نحن لدينا من المستندات ما يزج خصومنا في السجون.

زهرة تجلس مع جموع أهل البلدة تستمع إلى ابنها الذي وقف شامخًا وصوته القوي يجلجل في المكان، ظلت زهرة تحلم بهذا اليوم الذي يتبوأ فيه أحد أبناء عدلي هذا المنبر الحر. هاهو أشرف يجسد أمالها وأحلامها يقف أمامها الآن. أشرف الذي فضل البقاء في البلدة. كان صوت أشرف القوى يهز المكان والجميع يستمعون له بحب عميق

اقتربت سيارة سامي التي تشق طرقات البلدة يكسوها الغبار، تطاردها أسراب الكلاب كانت تسير مترنحة عاكسة الاضطرابات النفسية التي يعاني منها سائقها. أوقف سامي السيارة ونظر من

النافذة إلى شقيقه أشرف وهو في المنصة يخطب في الجموع الحاشدة. كانت كلمات أشرف تترامى إلى أذنيه وتنكأ جروح عميقة في نفسه. أشرف قد ربح الجولة انصهر مع أهل القرية طيلة السنوات العجاف الماضية وهم جالسين يستمعوا إليه في حب حقيقي لم يعرفه سامي.

حب القرية لإبنائها المخلصين. زهرة أمه تجلس مع المواطنين وشقيقته رباب التي تركها صغيرة اصبحت ألان فتاة حسناء تجلس جوار أمها "أين شيماء وكمال بل اين صديقه خالد؟ " غبت عنهم فترة بل حقبة من الزمن، البلدة التي رفضها في لحظة من لحظات الشيطان. عندما سيطرت عليه نزعاته الذاتية. لم يشعر بالعار في حياته كما يشعر الآن. اندفع بسيارته بعيدًا توقف أمام باب دارهم. نفس الدار. كل شيء في مكانه كأنه غادره بالأمس عدا فراش والده الخالي في أقصى الفناء ومازن شقيقه كان مستلقى يطالع صحيفة "مصر الجديدة" مازن الذي تركه طفل كبر وانخرط في الحزب أيضًا استوى مازن جالسًا يحدق في الزائر الغريب الذي دفع باب البيت دون ان يقرعه.

وجه سامي نظره حب طويلة إلى شقيقه جسدت كل التعاسة التي يعانيها.
- أنا سامي يا مازن! هب مازن والقى الصحيفة جانبًا واحتضن شقيقه في حب جارف.
- أهلًا يا أخي، لم اتعرف عليك لأول وهلة. سأذهب لأنادي أمي.
خرج مازن تاركًا سامي يتأمل الدار في حزن بالغ، نظر إلى، الناي القديم في مكانه معلق،
لم تمضي لحظات وانفتح الباب دخلت زهرة، هب سامي واندفع نحوها ازاحته بعيدًا

- ماذا تريد يا سامي لا مكان لك معنا الآن!
نزل عليه الكلام كالصاعقة. استدار نحوها في انهيار تام.
- لقد عدت يا أمي!
حدقت فيه زهرة وقد فاضت عيناها بالدموع
- عودتك كانت متأخرة. اختفت أختك شيماء ولم تعد، مات والدك ولم تعد، فما الذي جاء بك الآن؟
- ارجوك ارحميني يا أماه.
- عود من حيث أتيت. الكلب نفسه لا يعض على يد التي اطعمته.
- لكن يا أمي.
- عود إلى منزل عمك وصهرك وابق معهم هناك.
كان كلام زهرة بمثابة النهاية لسامي. استدار منصرفًا انهارت زهرة تبكي بحرقة. أنه ابنها ولا يمكن اسقاطه بسهوله. دخل شريف إلى المنزل ووجد أمه تبكي وبدت عليه الدهشة العميقة كيف تبكي أمه في يوم كهذا. الم تنتهي أيام الدموع بعد.
- من كان صاحب السيارة يا أمي؟
- كان أخوك سامي.
اين ذهب؟
دعك من هذا، ماذا فعلت؟
جلس أشرف جوار أمه ساهمًا لحظات " سامي! ما الذي أتى به الآن؟ " طرد أشرف هذه الخواطر المزعجة، ليس هناك وقت للعواطف. الوقت للعمل.
- قمنا ببث تحذير ضمني إلى أعوان الحاج إبراهيم ولا بد أنهم أخبروه بالمستندات التي بحوزتنا. ابتسمت زهرة من خلال دموعها واحتضنت ابنها أشرف بقوة لقد عوضها الله فيه، والده عدلي وكل الأشياء التي فقدتها في حياتها.

- كما تمنيت يا ولدي وكم من أمل مر الخداع. أن أعرف ماذا حدث لابنتي شيماء، لم يطاوعني قلبي، ابدًا انها غرقت في النيل.

نظر أشرف باسمًا إلى أمه وقبل أن يلقي بالسر. انفتح الباب ليعلن آخر مفاجئة سعيدة في تلك الليلة، دخلت رباب وقد تهلل وجهها بالسعادة وخلفها كمال وشيماء، كانت شيماء تحمل طفل صغير. هبت زهرة وأشرف في دهشة بالغة ودمعت العيون من الفرحة وارتسمت ابتسامة يملؤها الشوق والحنين سالت انهارًا.

- محاسن بنتي إنها لحظة كان يحرسها ملك، لقد كنت في سيرتك منذ لحظة انه قلب الأم. سبحان الله. اللقاء حارًا حافلًا بالشجن والدموع، كان حزن شيماء شديدًا عندما عرفت وفاة والدها. ظل كمال يقف بعيدًا لا يستطيع النظر إلى صديقه الذي جلس كالمشدوه، لم يعد يحتمل كل هذه المفاجئات التي تساقطت تباعًا. حملت زهرة الطفل بين يديها تتأمله في حب بالغ

- سبحان الله. ما أجمله. ما اسمه؟
- اسمه صالح يا أمي. . لماذا لم تخبريني يا بنتي بمكانك؟ انفطر قلبي عليك.
- سامحيني يا أمي. لقد عدت.
- نعم يا بنتي والعود أحمد.
نهض أشرف وكمال إلى الفناء الآخر للمنزل واستلقيا على الاريكة التي اعدتها لهما زينب وأخذا يتسامران،
ردد كمال في نبرة اعتذار.
- أنا جد متأسف يا أشرف.
- ابدًا لا داعي للأسف ليس كان بالإمكان ابدع مما كان.
- تزوجت شقيقتك فور وصولنا.

- أعلم ذلك، دعك من هذا الحديث، أشرف اليوم ليس أشرف في الماضي.
ما أخبار ابي يا أشرف
- بخير. ويرشح نفسه في الانتخابات.
- والدي يا أسرف يرشح نفسه! سبحان الله.
- يا كمال على الرغم من الصداقة التي بيننا والنسب الذي يجمعنا. ألا أن والدك يمثل الخط المعادي لنا ونحن لدينا مستندات تكفي لزجه بالسجن. استوى كمال جالسًا كالمسلوع، أخذ يحدق في صديقه.

- السجن! لا يا اشرف امهلني حتى اذهب إلى والدي.

- ليس لدي مانع يمكنك أن تتفاهم معه وتقنعه بالانسحاب أو العدول عن رأيه، نحن يهمنا أن نكسب الانتخابات وليس غرضنا الأضرار بوالدك.

- اشكرك يا أشرف، دعني اذهب إليه الآن.

نهض كمال وخرج من الباب الخلفي، يشق طرقات البلدة المظلمة التي كان يلفها الهدوء إلا من الرياح الخفيفة التي كانت تعبث بالشعارات المعلقة في كل مكان. دخل منزلهم الهادئ بعد غيبة طويلة، لم يتغير شيء، عدا الصمت الرهيب الذي يلف المكان، كان والده يصلي عن كثب، انتظره كمال حتى فرغ من صلاته.

- من هناك؟

- أنا كمال يا أبي.

انبسطت أسارير الحاج إبراهيم وهم بالنهوض. إلا أن كمال اندفع نحوه واحتضنه في شوق جارف وجلس معه على سجادة الصلاة، لم يصدق الحاج إبراهيم عودة ابنه كمال الذي طرده في ساعة من ساعات الشيطان.

- ابني كمال، اين ذهبت؟

منذ خروجك من البيت توالت على المصائب رحلت أمك وابنتها وتركتني أعاني الأمرين مع تلك العجوز النائمة التي أذاقتني الهوان.

كان كلمات إبراهيم المؤثرة النابعة من قلبه تسقط على أذن كمال بردًا وسلامًا.

- ألا زلت يا أبي تسيطر على المسجد والبترول في البلدة؟
- نعم وإني أرشح نفسى في الانتخابات.
- يا أبي ما شأنك بالسياسة، أحمد الله انهم لم يزجو بك في السجن مع رموز النظام البائد.
- نحن نريد تحكيم شرع الله.
- ماذا تعرف انت عن شرع الله يا أبي. هل نسيت أنك كنت تحتكر أقوات الناس. .
- لقد أصبحت عالم يا ابني.
- هل نسيت يا أبي عدلي الذي مات قهرًا بعد فرار ابنته بسببك، المزارع الجافة التي سيسألك الله عنها وأنت المسؤول على الجازولين؟
- رحم الله عدلي المسكين.
- لا بد أنك تشعر بالذنب حياله. هل تعرف له عيبًا سوى تعاطيه الخمر؟

كان لكلام كمال مفعول السحر في أبيه الذي بدأ ينهار تدريجيًا.

- يا أبي الحق أولى أن يتبع. استغفر ربك للتكفير عن الماضي.

انفجر الحاج إبراهيم باكيًا وهو يضم ابنه بقوة، ويعبث في شعره، كانت كلماته تقطر بالندم، ذلك الندم والعار الذي يشعر معه الإنسان كأن هناك خنجر انغرز في خاصرته.

- لم يكن عدلي رديئًا يا ولدي. أنا كنت ظالم وأناني!
- في الماضي كنت تظن الدين صلاة وصيام فقط ونسيت أن الدين المعاملة والتعاون على البر والتقوى. غاب عنك كل هذا وأعماك الجشع وأخذت تجمع الأموال لتكسب الدنيا والآخرة وخسرتهما معًا.
- كفى يا ولدي لم أعد أحتمل كل هذا.
- إذا ستسمع كلامي هذه المرة.
- نعم يا ولدي كنت حكيمًا، ولم أعرف قيمتك إلا عندما فقدتك.
- إذا حضر هؤلاء يا أبي أعلن عن انسحاب من الانتخابات كفاك تلوثا يا أبي.
- لا يا ابني، ليس هكذا تورد الإبل. سأعلن انسحابي بعد قفل باب الترشيح وأوجه كل من يريد أن يدلي بصوته لي أن يحوله إلى عصام عبد الجواد.
- نعم وبذلك تكون كفرت عن ماضيك في حق أهل البلدة الطيبة.
- نعم يا ابني آن الأوان لكي أعتكف لألقى ربي بقلب سليم.
- هذا هو عين العقل. كان الحاج إبراهيم يتمتم في أسى.
- ليتني استمعت لنصائحك في الماضي.

بينما كان كمال يناقش والده تداعى إلى مسامعه نواح زينب وهي في طريقها إلى المقابر في ذلك الليل البهيم، اتسعت عيناه بالدهشة وردد في ذهول

ما هذا الصوت يا أبي؟
- هذه زينب أم خالد. منذ أن اعتقله رجال الأمن وهذا حالها. اتخذت المقابر مسكنًا.
- أخذه رجال الأمن!
- نعم يا ابني وكل ذلك بسببي أنا! استوى كمال جالسًا وهو يحدق في والده في دهشه.
- ماذا تعني يا أبي؟
- أبلغت رجال الأمن في المدينة وأخبرتهم بنشاط خالد السياسي في البلدة وإنه هو الذي يكتب على الجدران. ألجمت المفاجئة لسان كمال وحملق في والده الذي أدلى بهذا الاعتراف الخطير.
- أبي أأنت فعلت هذا.
قل لا؟
انهار الحاج إبراهيم باكيًا وتمتم.
- نعم فعلتها يا ابني. وما خفي أعظم. وريا بنت عبد القادر !
- ريا يا أبي!
- لا استطيع أن أخبرك بكل شيء. فليرحمني الله!
أخذ الحاج إبراهيم يبكي بحرقة، ردد كمال في أسى ونظر إلى والده في إشفاق.
- فعلًا يا أبي أنت تستحق رحمة الله. نهض كمال وودع والده بعد أن ألقى عليه قنبلته الأخيرة "إنه تزوج من شيماء بعد أن هربا معًا وتركه فاغر فاه في دهشة. ". إذا هربًا معًا، الحمد لله على كل حال، كاد يدمر حياة ابنه بيده. تبًا لتلك الأيام القذرة.

الفصل الثالث عشر

اندفعت سيارة سامي قاصدا المقابر. كانت أضواء مصابيحها القوية تبدد العتمة، أوقف سامي السيارة عن كثب ونزل يشق المقابر الموحشة يبحث عن قبر والده سمع نشيج مكتوم ينبعث من قبة الشيخ صالح، أوجس خيفة لحظات ثم اندفع نحو باب القبة، وقف سامي يتأمل في دهشة المرأة الجالسة عند القبر "من هذه المرأة؟ " استطاع بعد برهة أن يعرفها "انها زينب أم خالد زين، صديق الطفولة. هل مات ولدها ايضًا؟ ". سمعت زينب الخطوات عند الباب والتفتت ورأت شبح سامي على ضوء القمر، تملكها رعب شديد واندفعت نحوه كالنمرة الشرسة فحاد عنها بصعوبة وخرجت لا تلوى على شيء وتلعنه وتنعته بأنه أحد رجال الأمن اللذين أخذوا ابنها وغاب صوتها بعيدًا، اقترب سامي من قبر والده، جلس
وقد اعتصره الألم، كان يشعر بالضياع وأن لا أحد يريده.
- أبي الحنون كم افتقدتك، لم يعد لي أحد في الدنيا، تخلى عني جميع الناس، بما فيهم أمي، أرجوك أن تغفر لي يا أبي كنت ابنًا عاقًا، لم أفهم حقيقتك، كنت يا أبي في القرية كالشمعة تضيء للناس وتحرق نفسك.
ليتك لم تمت يا والدي، كنت غفرت لي بنفسك المتسامحة.
ظل سامي يندب حظه العاثر عند قبر أبيه في المقابر الموحشة ونعيق البوم يملأ المكان، ويزيد من كآبة سامي، نهض وخرج من القبة يشق المقابر في طريقه إلى السيارة. ركب السيارة واستدار بها نحو الصحراء وانطلق، توقف تفكيره تمامًا، "لم يعد يعرف من هو! وإلى اين يذهب، لم تكن هناك جدوى لبداية جديدة. ". مع ازدياد اضطراباته الداخلية. كانت سرعة السيارة تزداد. ظلت مصابيح السيارات القادمة في الاتجاه المقابل في هذا الطريق الوعر تلقي ظلالًا موحشة على وجه سامي المتكدر. انتهت كل المعادلات التي تحفزه على البقاء على قيد

الحياة ولم يعد يذق طعمًا لها، فقط المرارة والسيارة منطلقة كالسهم. اراد انهاء حياته بيده أدار المقود بحدة، طارت السيارة في الهواء وهوت في الوادي السحيق كانت هذه الليلة من أطول ليالي القرية، جاءت شيماء تحمل وليدها إلى قبر والدها، جلست تبكي داخل القبة وتطلب الغفران.

- اغفر لي يا أبي لو كنت أعرف أنك سترحل ما هربت، وبقيت معك لأودعك الوداع الأخير. ظلت شيماء جالسة عند القبر، اقترب رجل ممطيًا حمارًا من باب القبة، كان الحاج إبراهيم. نهضت شيماء وقد تملكها الفزع الشديد، تنظر إلى القادم الجديد.

- أنا إبراهيم يا بنتي، لا تخافي! سامحيني لقد اخطأت في حقك وفي حق المرحوم والدك! وجهت له نظرة احتقار وهرولت عائدة إلى القرية تحمل وليدها الذي أخذ يبكي بشدة. نزل الحاج إبراهيم من الحمار، دخل إلى القبة، ركع جوار القبر يندب حظه العاثر ويتمسح بشاهد القبر وقد خنقته العبرات.

- أعفو عني يا عدلي، كنت أنت الغني بنفسك العالية وكنت أنا الفقير بمالي القذر، إن لم تعفو عني فعلي لعنة الله والناس أجمعين! يرحمك الله ياعدلي لقد انتصرت على مرة أخرى! نهض الحاج إبراهيم ومسح الدموع التي فاضت من عينيه مدرارًا وخرج من القبة إلى الظلام الشاحب الذي يلف المكان بعد أن مال القمر إلى الأفول مؤذنًا بالساعات الأولى للفجر. كانت الرياح تعبث بأوراق أشجار والنخيل المتيبسة مصدرةً صوتًا كالفحيح، مضى الرجل يشق القبور على ظهر حماره وعند طرف المقابر خيل له انه سمع صوتًا مألوفًا يتردد في اذنيه " عفوت عنك. عفوت عنك " أطلق الرجل زفرة حارة وتمتم "اللهم أعشنا في سلام وامتنا في سلام وادخلنا دارك دار السلام"، ذهب بحماره إلى القرية التي كان يخيم عليها الصمت إلا من نباح الكلاب الذي كان يتداعى من بعيد.

الفصل الرابع عشر

كان الماء ينساب رقراقًا. واشعة الشمس الذهبية، تعانق الماء معلنة حياة جديدة بدأت تدب في القرية وفي أوصلها تدريجيًا. كانت زينب تجلس عند حافة القناة عند مرسى المعدية تعب الماء عبا، وصلت المعدية إلى الشاطئ وبدأ القرويون يتدافعون للنزول إلى البر دافعين الدواب أمامهم. نزل شاب طويل القامة نحيف تبدو عليه آثار السفر والعناء، نظرت زينب من خلف الشجيرات إلى ذلك القادم الغريب، لم تكن تعرف انه خالد فلذة كبدها الذي فجعها فيه رجال الأمن، عاد خالد كأنه تقدم به العمر ألف عام، اخذ خالد يشق طرقات القرية المتربة. مر جوار منزل بشير الجزار، الذي كان يعمل معه صبي جزار أحيانًا في الماضي، هرعت الكلاب الشرسة لاستقبال صديقها القديم خالد، تعرفت الكلاب الوفية على اليد التي كانت تطعمها في الماضي، الكلاب التي لفظت أحمد ابن بشير وجعلته يترك البلدة نهائيًا، استقبلت خالد استقبال الأبطال. كان أشرف وكمال يقفان أمام منزلهما، لمحا خالد القادم عند نهاية الزقاق

- من القادم الجديد يا كمال؟

نظر كمال إلى الرجل القادم من بعيد تتراقص حوله الكلاب

-يا إلهي. انه خالد!

كان اللقاء بين الأصدقاء الثلاثة حافل بالشجن، الزمن الذي فرقهم بالأمس عاد يجمعهم الآن، تعالى صوت زهرة من داخل الدار، كانت تستفسر عن القادم الجديد، لم تسعها الفرحة عندما خرجت وواجهت خالد القادم من المجهول، كانت حرارة اللقاء شديدة، حتى انهم لم

يفطنوا إلى زينب التي اقبلت تشق الطريق المترب في طريقها إلى المقابر غير آبهة بهم، التفت خالد إلى أمه في استغراب، أصبح شكلها مفزعا، تمزقت ملابسها واسود لونها وتساقط جل شعرها الطويل الجميل، تعرف خالد على أمه، القى حقيبته الصغيرة واندفع خلفها يناديها.

- أماه. أنا خالد! وقفت زينب بغتة وقد رن صوت ابنها في أذنها كالجرس عله أوقظ ذاكرتها النائمة، والتفتت تحدق فيه مليًا وهو يوسع الخطى نحوها، ثم انصرفت عنه تنوح "ولدي خالد أخذه رجال الأمن... ولدي لن يعود". شعر خالد كأنما هناك خنجر انغرز في صدره، عرفته الكلاب الوفية ولم تعرفه أمه. انهار خالد باكيًا " ما الذي حدث في هذه الدنيا؟ " اقترب منه كمال وأشرف يهونون عليه الأمر وعادا به إلى البيت.

- لا عليك يا خالد، كانت الصدمة فوق احتمالها، زهرة ستتكفل بها فهي لا تثق بأحد غيرها منذ وفاة أبي.
- هل مات عمي عدلي ايضًا؟
- نعم يا خالد مات أبي والحديث ذو شجون هيا بنا الآن.
دخلوا إلى المنزل، وتهالك خالد على المسطبة دافنًا رأسه بين يديه. جلس الصديقان امامه يحدقان فيه في أسى عميق.

اندفعت زهرة خلف زينب التي ولت مبتعدة في طريقها إلى مكانها المعهود، المقابر. وقد بدأ الظلام يلف المكان بعباءته السوداء المرصعة بالنجوم. عند قبر عدلي جلست المرأتان تندبان وتنوحان. كان نواحهما يشق صمت المقابر الموحشة ممزوجًا بنعيق البوم وحفيف الأشجار، أشجار النخيل والدوم المتيبسة. وأنين الساقية البعيدة. كانت هذه مأساة الخراب الذي خيم على هذا البلد.

محتوى الكتاب